﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّة إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوّلَـهَا

50

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة العاشرة. العدد الخمسون: ربيع الأول/ربيع الآخر 1437هـ الموافق لـ مارس/أفريل 2016م

عداوة ذميمة

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر

عمر الحاج مسعود

أسس بيت المسلم

عز الدين رمضاني



مفاسد الإنترنت وأخطاره

نجيب جلواح

فتوى في ثبوت البنوة بعد إسلام الأبوين

أ.د.محمد علي فركوس

السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112. 6825

الكحول بين المصطلح العلمي والفهم الشرعي / د.نبيل مصطفاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

■■■

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة (بئر خادم) ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 38 56 57 (023)

(النقال): 92 99 06 (0559)

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com





افتتاحية

مدير المجلة



عداوة ذميمة

العلمـاءُ هُـم ورَثةُ الأنبيَاء، وهُم أولياءُ الله؛ والخائب الخاسـر مَن اتَّخذهم عـدوًّا؛ ففي البخـاري (6502) قـال ﷺ: «إنَّ الله قال: مَن عـادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحَرب».

وإنَّ عـداوةَ العلمانيِّـين والتَّغريبيِّـين ومَـن على شـاكلَتهم للعُلمـاء أمرٌ ليس بمُستَغْرب؛ لكنَّ العجَب لا ينقضي من أقوام ينتَسبون إلى العلم الشَّرعي والسَّلفيَّة وهم قد نصبوا العداء السَّـافر للعُلماء، يحملُون لهم الضَّغينَةَ والحقدَ، ويُطلقون ألسنَتُهم في أعراضهم؛ ويجرؤُون على وصفهم بأوصَاف، لا يُعلَمُ أنَّ أحَدًا من أهل العلم المعتَبرين قد نطقَ بمثلها، وإنَّ شخصًا وقَع في هذَا الوَحَل يكونُ قَد سَدَّ على نفســه بابَ الفَلاح، وجانَبَ طريقَ الهداية والصَّواب، وشابَهَ أهلَ البدَع في أعظم علاماتهم وهيَ الوقيعَة في أهل الأثر؛ ولله دَرُّ زَيْد بن سنَان رحمه الله لما قال: «إذا كانَ طالـبُ العلم لا يتعلَّمُ أو قَبل أنْ يتَعلَّم مسـألَةً في الدِّيـن، يتَعلَّمُ الوقيعَة في النَّاس؛ متَى يُفْلح؟!» [«ترتيب المدارك» (104/4)].

والَّـذي يزيـد في عجبك إذا علمتَ أنَّ مُثير هذه العَداوَة هو عدمُ تحمُّل شـدَّة العـالم في الحقِّ، والتَّضـايُق من ردوده وعدم سـكُوته عن المُبْطلـين، فهذه الغَيْرةُ على الحقِّ والسُّنَّة عوَضَ أن تكونَ محَلَّ محمَدة، تحوَّلَت عند هؤُلاء العاقِّين مذمَّةً ونقيصـةً، وكانَ الأَوْلى بهم أن يعتَرفُوا للعَالم بالفَضل والتَّقدُّم، لا أن يعُودوا عليه بالسَّـبِّ والتَّلوُّم، ثمَّ إنْ لم يعتَرفُوا لأهل الفَضـل بالفَضل، فليسَ لهم أن يعتَرضُوا بمثل هذَا الأسلوب الغَريب عن نَفَس العلم ومسـالك أهله؛ لكنَّ المرءَ إذا اعتراه سـوءُ الظَّنِّ، أو سوءُ الفَهم، أو سوءُ القَصْد يسهُلُ عليه ركوبُ الشَّناعات، ويتحلَّلُ من الآداب المرعيَّات الدَّاعية إلى سَلِّ سخَائم الصُّدُور، وسَداد الألسُن.

إنَّ طالبَ العلم الزَّكيَّ لا يستَعملُ من الأحكَام والأوصـاف إلا ما سُبق إليه، وما أجدَرَهُ أن يَرقَّ لفظُه في حقِّ العُلماء، ولهذا لم يَعبْ أحَدٌ على الإمام البُخاري رحمه الله تلطُّفَـه في العبارة عند التَّجريـح، بل عُدَّ ذلكَ من توقِّيه الزَّائـد، وتحرِّيه البَليغ؛ فالعالم الَّذي لم يتَّسـع صـدْرُكَ لقَبُول قَوله، لا تَسـمَح لنفسـك أن تقول فيه قولاً غير لائق، حتَّى لا تجعَلَ بينَكَ وبينَ المجرمين علائق، وتكون ظهيرًا لهم على هدم الإسلام والسُّنَّة.

فالنَّصـيحَةُ لمن انطوَت نفسُـه على هـذه العَداوَة أن يُبادرَ إلى إخلاء صَـدْره منهَا، وليَحْذَر من أن يقْدَمَ على الله وفي قَلبه شُحْنَةٌ منها، فإنَّ الإمامَ ابن المبارك رحمه الله يقُول: «مَن استَخفَّ بالعُلماء ذهَبَت آخرتُه».

وعلـى الموفَّق أن يسُـدَّ منافذَ تسـلُّل هـذه العَـداوة الذَّميمة، ومـن منافذها مصـاحبة أصحاب قالة السُّوء في العلماء، فإنَّ صُحبَةَ الأشرار تُورثُ سوءَ الظَّنِّ بالأخيَار؛ فانظُر مَن تَصْحَب حتَّى لا تقَع في هذا المعْطَب؛ والله المستعان.

محتويات

السنة العاشرة ـ العدد الخمسون:
ربيع الأول ـ ربيع الآخر 1437/مارس ـ أفريل 2016

23

المفطر بالأكل في رمضان بين الكفارة وعدمها



أسس بيت المسلم



غلاف العدد السابق



مفاسد الإنترنت وأخطاره



الكحول بين الاصطلاح العلمي والفهم الشرعي

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)

عين النعجة (بئر خادم) ـ الجزائر

الفاكس: 38 56 57 (023)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

سعر النسخة: (200 دج)

الاشتراك السنوي: (1500 دج)



حاجتُنا إلى اليَقين

التحرير

إنَّ الحيَاة الدُّنيا خُلقت على وجه يجدُ فيه العبدُ كثيرًا ممَّا يُنغِّصُ حياتَه، ويُشغل بالَه، ويُلهبُ نيرانَ الهموم في فؤاده، وهو ما يجعله دائم الاندفاع للبحث عمَّا يُسكِّنُ آلامَه، ويُضمِّدُ جراحَه، ويلمُّ شعثَه، ويُذهب همَّه؛ فيتَّخذ وسائل وطرُقًا يظنُّها كذلك؛ فإذا هي تزيدُ في ألمه وغمِّه، وضيق صَدْره، ولو أنَّه ولَّى وجهَه شطر كتَاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لوجد ما تطمئنُّ به نفسُه، وينشرحُ به صدرُه، ففي الوحي سعادةُ النُّفوس وحياتُها.

⌑ ⌑ ⌑

وإنَّ من أعظم الأسبَاب الَّتي تنقشعُ على عتَاباتها الهمُومُ والغُمومُ، وتذوبُ أمامَها الجروحُ والآلامُ هو انطواء القَلب على اليقين؛ لهذا كانَ ممَّا يدعو به النَّبيُّ ﷺ قوله: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا..»، قال ابنُ عُمر رضي الله عنهما: «قلَّما كانَ رسُولُ الله ﷺ يقُومُ مِن مَجْلِسٍ حتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَوَات لأَصْحَابه»[1].

فالَّذي يهوِّنُ من صَدْمة المصائب، ويخفِّفُ من وطأة البلايا وشدَّتها، أن يكونَ القلبُ عامرًا باليقين؛ هذا اليقينُ المُنافي للشَّكِّ والرَّيب والقاطع دابر كلِّ شُبهَة، وهو حقيقة الصِّدِّيقيَّة، ومن طريقه يصل العبدُ إلى أعلى مقامات الدِّين وأرفعها وهي مرتبةُ الإحسَان: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراه، فإن لم تكُن تَراه فإنَّه يرَاكَ، فاليقينُ منَ الإيمان بمنزلة الرُّوح منَ الجسَد؛ بل «اليقينُ الإيمانُ كلُّه». كما قال ابنُ مسعود رضي الله عنه[2].

⌑ ⌑ ⌑

وإنَّ أوَّلَ درَجَات اليَقين العلمُ؛ لذا عرَّفُوا اليقينَ: «أنَّه العلمُ الثَّابتُ المستقرُّ»[3]؛ فإذا صُبَّ على القلب ظهرَت ثمارُه اليانعة، وآثاره النَّافعة، قال ابنُ القيِّم: «ومتَى وصَل اليقينُ إلى القَلب امتلأ نُورًا وإشراقًا، وانتفَى عنْهُ كُلُّ ريْب وشَكٍّ وسَخَط، وهَمٍّ وغَمٍّ، فامتلأ محبَّةً لله، وخَوْفًا منْهُ ورضًا به، وشُكْرًا له، وتَوَكُّلاً عليْه، وإنابةً إليْه، فهُو مادَّةُ جميع المقَامات والحاملُ لها»[4].

وقال ابنُ رَجَب: «فمَن حقَّق اليقينَ، وثِقَ بالله في أُمُوره كلِّها، ورضيَ بتَدْبيره لهُ، وانقَطَع عن التَّعلُّق بالمخلُوقين رجاءً وخوفًا، ومنَعَه ذلكَ من طَلَب الدُّنيا بالأسبَاب المكرُوهَة، ومَن كانَ كذلكَ كانَ زاهدًا في الدُّنيا حقيقةً، وكانَ من أغنَى النَّاس، وإن لم يكُن لهُ شيءٌ منَ الدُّنيا كَما قال عمَّار: «كفَى بالموت واعظًا، وكفَى باليَقين غنًى، وكفَى بالعبَادة شُغُلا»[5].

فصاحبُ اليقين يجدُ راحةً وطمأنينةً، وقد يبلُغُ به الأمر أن يتحوَّل البلاءُ عنْدَه نعْمَةً، والمحْنَةُ منْحَةً، فلا تُثيره الأقدارُ المُؤلمة ولا تُزعجُه المصائبُ الموجعَة، ولا يحزنُ على فَقْد فائت، ولا يفرَحُ بآت، ثقتُه بالله وحدَه، هانت الدُّنيا كلُّها في عينه؛ لأنَّ قلبَه موقنٌ بالآخرة ومتطلِّعٌ إليها، قال تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [سُورَةُ النَّمۡلِ]، وهو ما يبعث الحياة

(1) أخرجه الترمذي (3502)، والنسائي في «الكبرى» (10161)، وقال الترمذي: حسن غريب.
(2) أورده البخاري تعليقًا.
(3) «جامع الرسائل» لابن تيمية (327/2).
(4) «مدارج السالكين» (375/2).
(5) «جامع العلوم والحكم» (181/2).

في بدنه وأعضائه فتنشط لسائر الأعمال الظَّاهرة والباطنة، «فاليَقينُ روحُ أعمَالِ القُلوب الَّتي هيَ أرواحُ أعمَال الجوارح» كما قال ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» (374/2).

¤ ¤ ¤

ولهذا كانَ صاحبُ اليقين أسعَدَ النَّاس وأهنأهم بالحياة، وأكثرَهُم انتفاعًا بآياتِ الله الكونيَّة وآياته الشَّرعيَّة؛ قَال الله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجاثية]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠﴾ [الذاريات]، وقد أبان الله لخليله ﷺ آياته البديعة الكونيَّة ليكمُل يقينُه، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام]، فرأى ببصيرته، ما فيها من الأدلَّة القاطعَة، والبراهين السَّاطعَة، فحصل له الإيقان والعلم التَّامّ بجَميع المَطالب(6).

وعكسُه من فَقَد اليَقين فإنَّه لا ينتفعُ بشيء من ذلكَ، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [الطور]، فعَدمُ يقينهم منعَهُم منَ الانتفاع بأيِّ دليل من الأدلَّة.

○ أمَّا بخصوص الآيات الشَّرعيَّة، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة]؛ فالمُوقن يُدركُ حُسنَ أحكام الشَّريعَة وجمالها، ويظهر له جليًّا أنَّ أحكامَ الله كلَّها علمٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ، فهوَ سُبحانه العالمُ بكُلِّ شيء، القادرُ على كُلِّ شيء، العَادلُ في كُلِّ شَيْء، فالخير في طاعة أوامره، والشَّرُّ في إتيان زواجره ونواهيه؛ فالحاجة ماسَّةٌ إلى أن نُودعَ قلوبنَا هذا اليقينَ، لتَنكشفَ غيومُ الشُّكوك والتَّردُّد عن البصائر، ونجزمَ أنَّ فلاحنا وصلاحنا في أمر واحد وهو طاعة نبيِّنا ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: 54]، فعلَّق الله الهدايةَ عليها، فلا الأهواءُ ولا الآراءُ ولا المناهجُ المُخالفة لهديه ﷺ بالَّتي تحقِّقُ نصرًا أو خيرًا؛ فالرَّاشد مَن لزم هديَه ﷺ ولم يراوده الشك لقلَّة المُوافق ولا لكثرة المُخالف؛ لأنَّ همَّه رضَى الخالق سُبحانه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ منَ اليَقين أَنْ لا تُرْضيَ النَّاسَ بسَخَطِ الله»(7).

فالثباتُ على الحق والسُّنَّة يحتاج إلى صَبرٍ ويقين بوعد الله بالنَّصر والتَّأييد، قَال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم]؛ فمَن صَبَرَ على يقينه لم يستفزَّه المُبطلون، ولم يستَخفَّهُ الَّذين لا يُوقنون، «ومتَى ضعُفَ صبرُه ويقينُه أو كلاهُمَا استفزَّه هؤلاء واستَخفَّه هؤلاء، فجذَبُوه إليهم بحَسَب ضَعْف قُوَّة صَبره ويقينه، فكُلَّما ضَعُفَ ذلكَ منهُ قويَ جذبُهُم له، وكُلَّما قويَ صبرُه ويقينُه قويَ انجذابُه منهُم وجَذْبُه لهم»(8).

فعلى قَدْر قُوَّة يقين الدَّاعي وصبره، يكونُ أثر دعوته في المَدْعُوين، وعلى قَدْر قوَّة يقينه تكونُ شدَّةُ صَبره، قال ابنُ القيِّم: «وعلى حسَب اليَقين بالمشروع يكونُ الصَّبر على المَقْدُور»(9)؛ وبالصَّبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين.

فأهلُ اليَقين قَد أَلَمُّوا بمجَامع الخَيْر، وحازُوا السَّبْق في ميادين الهُدى والفَلاح، قَال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة]؛ وفي «الزهد» لأحمد (52) قال ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل»(10)، بل يلزمُ العبدُ عبادةَ الله إلى الممات، قال الحسَنُ البَصري رحمه الله: «لم يجعَل الله لعبده المؤمن أجلاً دونَ الموت».

¤ ¤ ¤

والخُلاصةُ أنَّ من حُرم اليقينَ فهو محرومٌ؛ إذ لم يذُق أَنفَسَ ما في هذه الحياة، وإنَّ أشد النَّاس حسرةً يومَ القيامَة مَن أتى الله بقلب خاوٍ منَ اليَقين، فيقفُ ذليلا حقيرًا، ويدَّعي لنفسه اليقين ويطلبُ الرَّجْعَة إلى الدُّنيا، ولكن هيهات، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة]، فلم ينفعْهُم يقينُهم يومَ القيامة؛ لأنَّهم في الدُّنيا استبدلوه بالظَّنِّ والتَّوهُّم؛ قَال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية]؛ فكان جزاؤهم أن يُحْرَمُوا ما يشتهون، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ٥٤﴾ [سبأ].

¤ ¤ ¤

(6) «تفسير السعدي» بتصرف.

(7) «معجم ابن الأعرابي» (1491).

(8) «مدارج السالكين» (204/3).

(9) «التبيان في أقسام القرآن» (ص137).

(10) حسَّن إسناده لغيره الألباني في «الصحيحة» (3427).



تأمّلات في قوله تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾

لطفي طاهر
الجزائر العاصمة

الحمد لله الّذي أنزل القرآن هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان، والصّلاة والسّلام على رسول الله الذي بيّن شرائع الدّين أتمّ البيان، وعلى آله وصحابته الكرام الطّيبين ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

فيقول ربّنا عز وجل في كتابه العزيز:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة القصص: 50].

هذه الآية قاعدة من القواعد القرآنيّة المهمّة، الّتي جاءت في باب الاستجابة والتّسليم لأوامر الله ورسوله، والانقياد لأحكام الشّريعة المُطهّرة، لقد بيّنَت أنَّ النّاسَ بالنّسبة لما جاء به مُحمّدٌ ﷺ من الهدى بين حالَين لا ثالثَ لهما: إمّا الاستجابةُ وإمّا اتّباع الهوى، قال الإمام ابن قيّم الجوزيّة: «فقسم النّاسَ إلى مُستجيبين للرّسول ومُتّبع هواه، فمن ترك استجابتَه إذا ظهرت له سنّةٌ، وعَدَلَ عنها إلى خلافها فقد اتّبع هواه»[1]، وقال الشّيخ السّعدي رحمه الله: «وفي قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ دليل على أنَّ كلَّ مَنْ لم يَستجِبْ للرّسول، وذهب إلى قول مُخالف لقول الرّسول، فإنّه لم يذهبْ إلى هدًى، وإنّما ذهب إلى هوى»[2].

فأمّا الاستجابةُ للرّسول ﷺ:

○ فهي طاعته في ما أَمَرَ، واجتنابُ ما نهى عنه وزَجَرَ، وتصديقُه فيما أخبر، وألاَّ يُعبَدَ الله إلاّ بما شَرَعَ، وهي مُقتَضى شهادة أنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، وهي استجابةٌ لله تعالى؛ إذ طاعتُه ﷺ طاعةٌ لله، قال عز وجل: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: 80]، وقد قرنها بطاعته في غير ما آية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء: 59]، وفرضها على عباده المؤمنين فقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: 59]، وجعلها شرطًا للهداية فقال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: 54]، بل إنَّ الله تعالى جعل اتّباعَ نَبيّه دليل صدق كلّ من ادّعى محبّةَ الله فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: 31].

○ وهي استجابةٌ للإسلام استجابةً شاملةً، عقيدةً ومنهجًا وسلوكًا، عبادةً ومعاملةً، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة البقرة: 208]، فقد أمر الله تعالى «عباده المؤمنين به المُصدِّقين برَسوله: أن يَأْخُذُوا بجميع عُرَى الإسلام وشَرائعه، والعملِ بجميع أوامره، وتركِ جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك»[3].

○ وهي دليل الإيمان، قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [سورة الأحزاب: 36]، «أي: لا ينبغي ولا يليق، بمن اتّصَفَ بالإيمان، إلاّ الإسراعُ في مرضاة الله ورسوله، والهربُ من سخط الله ورسوله، وامتثالُ أمرهما، واجتناب نهيهما»[4]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور: 51]، وهذه «صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الّذين لا يَبغُون دينًا سوى كتابِ الله وسنّةِ رسوله، أن يقولوا سمعًا وطاعةً، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسّلامَةُ من المَرهُوب»[5]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء: 65]، أي «لا يؤمن أحدٌ حتّى يُحكِّمَ الرّسولَ ﷺ في جميع الأمور، فما حَكَمَ به فهو الحقُّ الّذي يَجِبُ الانقيادُ له

(1) «الصّواعقُ المُرسَلةُ على الجهميَّة والمُعطِّلة» (4/ 1526).

(2) «تيسير الكريم الرحمن» (ص593).

(3) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (1/ 439).

(4) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص638).

(5) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ص116)، باختصار.

باطنًا وظاهرًا، وإذا حَكَّمُوه يُطيعُونَه في بواطنهم فلا يَجِدُون في أَنفُسِهم حرجًا ممَّا حَكَمَ به، ويَنقَادُون له في الظَّاهِرِ والباطِنِ فيُسلِّمُون لذلك تسليمًا كُلِّيًا من غَيرِ ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»[6].

○ وهي حقيقة الحياة الطَّيِّبة، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ]، قال العلَّامة ابنُ قيِّم الجوزيَّة رحمه الله: «تَضمَّنَتْ هَذه الآيَةُ أُمورًا:

أَحدُها: أَنَّ الحَيَاةَ النَّافعةَ إنَّما تحصُلُ بالاستجابة لله ورسوله؛ فمن لم تَحصُلْ له هذه الاستجابة فلا حياةَ له وإن كانت له حياةٌ بهيميَّةٌ مُشتَركَةٌ بَينَه وبَينَ أرذَلِ الحيوانات، فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيِّبَةُ هي حياةُ من استجابَ لله والرَّسولِ ظاهرًا وَباطنًا، فهؤلاء هم الأحياءُ وإن مَاتُوا، وغيرُهُم أمواتٌ وإن كانوا أحياءَ الأَبدَانِ، ولهذا كان أَكمَلُ النَّاسِ حَياةً أكملَهم استجابةً لدعوة الرَّسُولِ؛ فإنَّ كُلَّ ما دعا إليه ففيه الحياةُ، فمن فَاتَهُ جُزءٌ منه فاتَهُ جزءٌ من الحياة، وفيه من الحياة بِحَسب ما استجاب للرَّسول»[7].

وقال الإمامُ السَّعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصفٌ ملازمٌ لكلِّ ما دعا الله ورسولُه إليه، وبيانٌ لفائدَته وحكمَته؛ فإنَّ حياةَ القلب والرُّوح بعبوديَّة الله تعالى ولزوم طَاعَته وطاعة رسوله على الدَّوام»[8].

◎ ولقد ضربَ لنا الصَّحابةُ رضوان الله عليهم أَروَعَ الأمثلة في الاستجابة لله ولرسوله، من ذلك:

○ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، قال ابنُ كثير رحمه الله: «هذا كان يومَ «حَمْرَاءِ الأَسَدِ»، وذلك أَنَّ المشركين لَمَّا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كَرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلمَّا استَمرُّوا في سَيرِهم تندَّموا لِمَ لا تَمَّموا على أهلِ المدينة وَجعلُوها الفَيصَلَةَ.

فلمَّا بلَغَ ذلك رسولَ الله ﷺ نَدَبَ المسلمين إلى الذَّهاب وَراءَهم ليُرعِبَهم ويُريَهم أَنَّ بهم قُوَّةً وجَلَدًا، ولم يَأذَنْ لأحدٍ سوى من حَضَرَ الوَقعَةَ يومَ أُحُد، سِوَى جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعةً لله ﷻ ولرسوله ﷺ»[9].

○ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «يرحمُ اللهُ نساءَ المهاجرات الأُوَلَ، لَمَّا أَنزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31] شقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فاختَمَرْنَ بها»[10].

○ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: «كُنتُ أَسقي أَبا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاح وأبا طَلحَةَ وأُبَيَّ بنَ كَعب، شرابًا من فَضِيخٍ وتَمْرٍ، فأتاهم آتٍ فقال: إنَّ الخَمْرَ قد حُرِّمَت، فقال أبو طلحة: يا أنس، قُمْ إلى هذه الجَرَّة فاكسرْها، فقمتُ إلى مهراس لنا فضَربْتُها بأَسفَلِه، حتَّى تكسَّرَتْ»[11].

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمَّا نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، قال: «فاشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتَوا رسولَ الله ﷺ ثمَّ بَرَكُوا على الرُّكَب، فقالوا: أي رسولَ الله، كُلِّفْنَا من الأعمالِ ما نطيقُ، الصَّلاةَ والصِّيَامَ والجهَادَ والصَّدَقَةَ، وَقد أُنزِلَت عَلَيكَ هَذه الآيَةُ ولا نُطيقُهَا، قال رسولُ الله ﷺ: «أتريدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ في إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، فلمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، «قَالَ: نَعَمْ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ «قَالَ: نَعَمْ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، «قَالَ: نَعَمْ»، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، «قَالَ: نَعَمْ»[12].

◎ وأمَّا اتِّباع الهوى:

○ فهو مَنشَأُ كلِّ بدعة ومعصية وأَصلُ كلِّ فتنة وبليَّة، قال ابنُ رجب رحمه الله: «فجميعُ المعاصي إنَّما تنشَأُ من تقديم هوى النُّفوسِ على محبَّة الله ورسوله، وقد وصفَ اللهُ المشركين باتِّباع الهوى في مواضعَ من كتابه فقال تعالى:

(6) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ص329)، بتصرّف.
(7) «الفوائد» لابن القيم (ص92).
(8) «تيسير الكريم الرحمن» (318).
(9) «تفسير القرآن العظيم» (2/157،158) بتصرف يسير.
(10) البخاري (4758).
(11) البخاري (7253)، مسلم (1980)، «مُوطأ مالك» (2/ 447، 846).
(12) مسلم (125).

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: 50]، وكذلك البدع، إنَّما تنشأُ من تقديم الهوى على الشَّرع، ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواء، وكذلك المعاصي إنَّما تقع من تقديم الهوى على محبَّة الله ورسوله ومحبَّة ما يُحبُّه، وكذلك حبُّ الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرَّسولُ ﷺ؛ فيجبُ على المؤمن محبَّةُ الله ومحبَّةُ من يُحبُّه الله من الملائكة والرُّسُل والأنبياء والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين عمومًا، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلاَّ لله، ويَحرُم موالاةُ أعداء الله ومن يكرهُه الله عمومًا، وقد سبق ذلك في موضع آخر، وبهذا يكون الدِّينُ كلُّه لله، و«مَنْ أَحَبَّ لله، وأَبْغَضَ لله، وأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، فَقَد اسْتَكْمَلَ الإيمَانَ»[13]، ومن كان حُبُّه وبُغضه وعطاؤه ومَنعُه لهوى نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فيَجبُ عليه التَّوبةُ من ذلك، والرُّجوعُ إلى اتِّباع ما جاء به الرَّسولُ ﷺ من تقديم محبَّة الله ورسوله، وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النُّفوس ومُراداتها كُلِّها»[14].

قال الشَّاطبي: «وما بيَّنته الشَّريعةُ وبيَّنته الآيةُ[15] أنَّ اتِّباعَ الهوى على ضَرْبَيْن: أحدهما: أن يكون تابعًا للأمر والنَّهي فليس بمذموم ولا صاحبُه بضالٍّ، كيف وقد قدَّم الهدى فاستنار به في طريق هواه، وهو شأن المؤمن التَّقيِّ؛ والآخر: أن يكون هواه المُقدَّمَ بالقصد الأوَّل، كان الأمرُ والنَّهيُ تابعَيْن بالنِّسبة إليه أو غيرَ تابعَيْن وهو مذمومٌ، والمبتدع قدَّم هوى نفسه على هدى الله فكان أضلَّ النَّاس وهو يَظنُّ أنَّه على هدى.

وقد انجرَّ هنا معنى يَتأكَّدُ التَّنبيهُ عليه، وهو أنَّ الآيةَ المذكورةَ عيَّنَتْ للاتِّباع في الأحكام الشَّرعيَّة طريقَين: أحدهما: الشَّريعة، ولا مِرْيَةَ في أنَّها علمٌ وحقٌّ وهدى؛ والآخر: الهوى، وهو المذموم؛ لأنَّه لم يُذكَرْ في القرآن إلاَّ في سياق الذَّمِّ، ولم يجعل ثَمَّ طريقًا ثالثًا، ومن تتبَّعَ الآيات ألفى ذلك»[16].

○ والهوى «ميلُ الطَّبع إلى ما يُلائمُه، وهذا الميلُ خُلقَ في الإنسان لضرورة بقائه، فإنَّه لولا مَيلُه إلى المَطعَم والمَشرَب والمَنكَح ما أكَلَ ولا شَربَ ولا نَكَحَ، فالهوى مُستَحثٌّ لها لما يُريدُه، كما أنَّ الغَضَبَ دافعٌ عنه ما يُؤذيه، فلا ينبغي ذمُّ الهوى مُطلقًا ولا مَدحُه مُطلقًا، كما أنَّ الغَضَبَ لا يُذَمُّ مُطلقًا ولا يُحمَدُ مُطلقًا، وإنَّما يُذَمُّ المُفرطُ من النَّوعَيْن، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضارِّ، ولمَّا كان الغالبُ من مُطيع هواه وشهوته وغضبه أنَّه لا يَقفُ عند حدِّ المُنتَفَع به أطلقَ ذمَّ الهوى والشَّهوة والغَضَب لعموم غلبة الضَّرر؛ لأنَّه يَندُرُ من يَقصدُ العدلَ في ذلك ويَقفُ عنده، كما أنَّه يندر في الأمزجة المزاجُ المُعتَدلُ من كلِّ وجه، كحرص الطبيب على تعديل المزاج من كل وجه، بل لابدَّ من غلبة أحد الأخلاط والكيفيَّات عليه، فحرص النَّاصح على تعديل قوى الشَّهوة والغضب من كلِّ وجه، وهذا أمرٌ يتعذَّرُ وجودُه إلاَّ في حقِّ أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلاَّ ذمَّه، وكذلك في السُّنَّة لم يَجئْ إلاَّ مذمومًا إلاَّ ما جاء منه مُقيَّدًا كقوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِه»[17]»[18].

○ والهوى مذمومٌ في القرآن والسُّنَّة وكلام السَّلف:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49]، وقال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71]، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (29)﴾ [الروم]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)﴾ [الجاثية] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: «إنَّ أَهْلَ الكتَاب قَبْلَكُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْن وَسَبْعينَ فرْقَةً في الأَهْوَاء، أَلاَ وإنَّ هَذه الأُمَّةَ سَتَفْتَرقُ عَلَى ثَلاَث وَسَبْعينَ فرْقَةً في الأَهْوَاء، كُلُّهَا في النَّار إلاَّ وَاحدَةً وَهيَ الجَمَاعَةُ، أَلاَ وإنَّهُ يَخْرُجُ في أُمَّتي قَوْمٌ يَهْوَوْنَ هَوًى، يَتَجَارَى بهمْ ذَلكَ الهَوَى كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بصَاحبه لاَ يَدَعُ منْهُ عرْقًا وَلاَ مفْصَلاً إلاَّ دَخَلَهُ»[19]، وقال: «إنَّ ممَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ بَعْدي: بُطُونكُمْ

---

(13) «سنن أبي داود» (4681) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، انظر «السِّلسلة الصَّحيحة» (380).

(14) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص407).

(15) يعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾.

(16) «الاعتصام» للشَّاطبي (1/38).

(17) «السُّنَّة» لابن أبي عاصم (15) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الألباني: «ضعيف».

(18) «روضة المُحبِّين ونزهة المشتاقين» لابن القيِّم (ص293).

(19) «سنن أبي داود» (4597)، «سنن الدَّارمي» (2560)، «مسند أحمد» (16937)، الحاكم (443)، و«السُّنَّة» لابن أبي عاصم (1، 2، 65) عن معاوية رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني، انظر «الصَّحيحة» (204).

وفُرُوجِكُم، ومُضِلَّاتِ الأَهْوَاءِ»[20]، وقال: «اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ والأَدْوَاءِ»[21].

عن طاووس أنَّ رجلاً قال لابن عبَّاس: «الحمد لله الَّذي جعل هوانا على هواكم، فقال ابنُ عبَّاس: إنَّ الله لم يَجْعَلْ في هذه الأهواء شيئًا من الخير، وإنَّما سُمِّيَ هوًى لأنَّه يَهوي بصاحبه في النَّار»[22].

قال عليٌّ رضي الله عنه: «الهوى يَصُدُّ عن الحقِّ»[23].

وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: «ما فرحتُ بشيءٍ من الإسلام أشدَّ فرحًا بأنَّ قلبي لم يَدخُلْه شيءٌ من هذه الأهواء»[24].

قال طاووس: «ما ذكر اللهُ هوى في القرآن إلَّا عابَهُ».

وقال الحسن البصري: «ما مِنْ داءٍ أشدُّ من هوى خالَطَ قلبًا»[25].

وقال ابنُ عون: «إذا غلَبَ الهوى على القلب استَحْسَنَ الرَّجُلُ ما كان يَستقبِحُه»[26].

وقال إبراهيمُ النَّخَعي في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 64]: «هم أصحابُ الأهواء»[27].

وقال أبو عثمان النَّيْسَابُوري: «مَنْ أمَّرَ السُّنَّةَ على نَفسه قولاً وفعلاً نَطق بالحِكمَة، ومَنْ أمَّرَ الهوى على نَفسه قولاً وفعلاً نَطقَ بالبدعَة»[28].

وكان الإمامُ مالكٌ يقول: «لو أنَّ العبدَ ارْتَكَبَ الكبائرَ كلَّها بعد أن لا يُشركَ بالله شيئًا، ثمَّ نجا من هذه الأهواء، لرجوت أن يكون في أعلى جنَّات الفردوس؛ لأنَّ كلَّ كبيرة بين العبد وبين ربِّه هو منها على رجاء، وكلَّ هوى ليس هو منه على رجاء، إنَّما يهوي بصاحبه في نار جهنَّم»[29]، وكان يقول: «لا يُؤخَذُ العلمُ عن أربعة، ويُؤخَذُ من سوى ذلك، وذكر من هؤلاء الأربعة: صاحبُ الهوى يدعو إلى هواه، أو قال: مبتدع يدعو إلى بدعته»[30].

○ واتِّباعُ الهوى أعظم أسباب الضَّلال والهلاك والشَّقاء في الدُّنيا والآخرة، لذلك ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾، قال الشَّيخُ السَّعدي: «فهذا من أضلِّ النَّاس، حيث عُرِضَ عليه الهدى والصِّراطُ المستقيمُ المُوصِلُ إلى الله وإلى دار كرامَته، فلم يَلتفِتْ إليه، ولم يُقبلْ عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطُّرُق الموصِلَة إلى الهلاك والشَّقاء، فاتَّبعَهُ وترَكَ الهدى، فهل أحدٌ أضَلُّ ممَّن هذا وصفُه؟ ولكنَّ ظلمَه وعدوانَه وعدمَ مَحبَّته للحقِّ هو الَّذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ أي: الَّذي صار الظُّلمُ لهم وصفًا والعنادُ لهم نعتًا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سَدُّوا على أنفسهم أبوابَ الهداية وطُرُقَها، وفتَحوا عليهم أبوابَ الغواية وسُبُلَها، فهم في غَيِّهم وظُلمِهم يَعمَهُون، وفي شَقائهم وهَلاكهم يتَردَّدُون»[31].

قال الشَّاطبي: «وتَأمَّلوا هذه الآيةَ فإنَّها صريحةٌ في أنَّ من لم يتَّبعْ هدى الله في هوى نفسه فلا أحدَ أضلُّ منه»[32].

فليحذَرِ المسلم أن يأتيَهُ أمرُ الله أو أمرُ رسوله فيُعرِضَ عنه ويقدِّمَ هواه عليه، فإنَّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور]، «أي عن أمر رسوله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنَّته وشريعتُه، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا مَنْ كان»[33]، عن عثمان بن عمر العبدي قال: «جاء رجلٌ إلى مالك فسأله عن مسألة، فقال له: قال رسول الله كذا وكذا، فقال الرَّجلُ: أرأيتَ؟ فقال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾»[34]، ولله درُّ القائل:

ليس الطَّريقُ سوى طريق مُحمَّد فهي الصِّراط المستقيم لمن سلك

من يمش في طرقاته فقد اهتدى بسبيل الرَّشَاد ومن يَزِغْ عنها هلك

فإنَّ «الطُّرُقَ كلَّها مَسدودةٌ على الخلق إلَّا من اقتفى أثر الرَّسول واتَّبَعَ سنَّته ولزم طريقته، فإنَّ طريقَ الخيرات كلِّها مفتوحةٌ عليه»[35].

فاللَّهمَّ أحْيِنَا على سنَّة نبيِّك وأَمِتْنَا عليها وجَنِّبْنَا الأهواءَ كلَّها إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ.

والحمد لله أوَّلاً وآخرًا.

---

(20) «مسند أحمد» (19773)، و«السُّنَّة» لابن أبي عاصم (14)، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة».

(21) «جامع التِّرمذي» (3591)، و«السُّنَّة» لابن أبي عاصم (13) عن قطبة بن مالك رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنَّة».

(22) «الشَّرح والإبانة على أصول السُّنَّة والدِّيانة» لابن بطَّة العُكبَري (22).

(23) المصدر السَّابق (21).

(24) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» للَّالكائي (1/ 130).

(25) «الشَّرح والإبانة» (22).

(26) «الشَّرح والإبانة» (25).

(27) «الشَّرح والإبانة» (141).

(28) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (10/ 244).

(29) «الاعتصام» (2/ 248).

(30) «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (1/ 66).

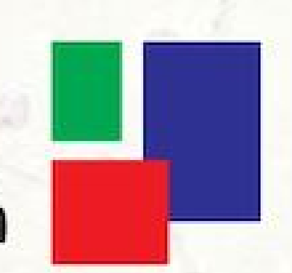
(31) «تيسير الكريم الرَّحمن» (395).

(32) «الاعتصام» (1/ 38).

(33) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (5/ 131).

(34) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» للَّالكائي (1/ 144)، و«حلية الأولياء» لأبي نُعَيْم (6/ 326).

(35) «حلية الأولياء» لأبي نعيم عن الجنيد (10/ 257).



إِرشَادُ المُوَفَّقِ
إلى معرفة خِلاف الأصبهاني للأَزْرَقِ

عبد الله رحيل
إمام أستاذ . تلمسان



لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّي، وَصَلِّ تَفَضُّلاَ عَلى الْمُصْطَفَى وَالآلِ مَعْ مَنْ لَهُمْ تَلاَ

وَهَاكَ خِلاَفَ الأَصْبَهَانِي بِنَشْرِهِمْ لِلاَزْرَقِ عَنْ وَرْشٍ بِذَا النَّظْمِ حُصِّلاَ[1]

فَبَسْمِلَ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ، وَضَمَّ هَا «بِهِ انْظُرْ»[2]، وَعَنْهُ اقْصُرْ لِمُنْفَصِلٍ جَلاَ

وَمَعْ ذِي اتِّصَالٍ وَسِّطَنْهُ وَدُونَ ذَا، وَفِي ذَيْنِ مَنْعُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا اعْتَلَى

وَمُتَّصِلاً أَشْبِعْ وَفِي الْعَيْنِ ثَلِّثَنْ وَفِي بَدَلٍ وَاللِّينِ فَاقْصُرْ لِيَكْمُلاَ[3]

وَسَهِّلْ فَقَطْ فِي الْهَمْزَتَيْنِ بِكِلْمَةٍ وَفِي الْكِلْمَتَيْنِ فِي اتِّفَاقٍ كَذَا افْعَلاَ[4]

وَآئِمَّةً أَبْدِلْ، وَفِي الْقَصَصِ ثَانِياً مَعَ السَّجْدَةِ الإِدْخَالُ عَنْهُ مُسَهِّلاَ[5]

وَأَخْبِرْ ءَآمَنْتُمْ[6]، وَكُلُّ مُسَكَّنٍ مِنَ الْهَمْزِ مَدًّا عَنْهُ يُبْدَلُ مُسْجَلاَ

سِوَى الْكَأْسِ رَأْسِ الْبَأْسِ رِئْيًا وَلُؤْلُؤًا وَجِئْتُ وَهَيِّءْ نَبِّئْ اقْرَأْ فَحَصِّلاَ

وَتُؤْوِي[7]، لِئَلاَّ حَقِّقَنْ مَعْ مُؤَذِّنٌ[8] وَأَبْدِلْ: فُؤَادٌ، خَاسِئًا، مُلِئَتْ حُلَى

وَنَاشِئَةً، ذَا الْفَا بِأَيٍّ وَدُونَهَا بِخُلْفٍ[9]، وَحَرِّ فِي «اطْمَأَنَّ» فَسَهِّلاَ[10]

«رَأَيْتُهُمُو لِي» مَعْ «رَأَيْتُ» بِيُوسُفَ، «رَأَيْتَهُمُو تُعْجِبْ»، وَفِي النَّمْلِ حُصِّلاَ:

«رَآهُ، رَأَتْهُ» ثُمَّ فِي قَصَصٍ أَتَى: «رَآهَا»[11]، «كَأَنَّ» مُطْلَقًا عَنْهُ سُهِّلاَ[12]

«تَأَذَّنَ» فِي الأَعْرَافِ مَعْ خُلْفِ إِبْرَهِمْ[13]، وَأُخْرَى «فَأَنْتَ» مَعْ «فَأَصْفَاكُمُ» انْجَلَى

وَقُلْ «فَأَمِنْ»، «لأَمْلأَنْ»[14]، وَبِهَمْزِهِ «النْ نَسِيُّ» مَعَ التَّخْفِيفِ وَالْمَدِّ جُمِّلاَ[15]

وَ«مِلْءُ» انْقُلَنْ خُلْفًا[16]، وَتَاءَ مُؤَنَّثٍ لَدَى الظَّا أَبِنْ[17]، وَخُلْفُ «يَلْهَثْ» تَجَمَّلاَ[18]

وَغُنَّ أَوِ اتْرُكْ عِنْدَ لاَمٍ وَرَائِهَا[19]، وَفِي نُونَ أَظْهِرْ، خُلْفُ يَاسِينَ يُجْتَلَى[20]

وَقَدْ مَيَّلَ «التَّوْرَاةَ» حَسْبُ، وَبَعْضُهُمْ بِـ: «هَايَا» وَهَا «طَهَ» وَيَاسِينَ قَلَّلاَ[21]

لَهُ، وَلِرَاءٍ فَخِّمَنْ وَرَقِّقَنْ لاَمًا كَحَفْصٍ فِيهِمَا عَنْهُ رُتِّلاَ[22]

وَيَاءَ «ذَرُونِي» افْتَحْ، وَ«مَحْيَايَ» سَكِّنَنْ، وَفِي «إِخْوَتِي» أَيْضًا وَ«أَوْزِعْنِيَ» الْعُلَى

مَعًا مَعْ «وَلِيَ فِيهَا»[23]، وَفِي الْكَهْفِ «إِنْ تَرَنْ» مَعَ «اتَّبِعُونِ» الْيَاءُ فِي الطَّوْلِ وُصِّلاَ[24]

«أَرَيْتَ» فَلاَ تُبْدِلْ وَ«هَاأَنْتُمُو» لَهُ، وَلِلأَلِفِ احْذِفْ أَوْ فَأَثْبِتْ لِتَفْضُلاَ[25]

«أَوَ . ابَاؤُنَا» أَسْكِنْ وَحَرِّكْهُ نَاقِلاً، وَصِلْ «أَصْطَفَى» الصَّافَاتِ[26]، وَاخْتِمْ مُحَمْدِلاَ

(1) أي: خذ ما خالف فيه أبو بكر الأصبهاني. من طريق كتاب النشر لابن الجزري. أبا يعقوب الأزرق في روايتهما القراءة عن أبي سعيد المصري الملقب بورش محصلا في هذا النظم.

○○○

(2) أي: بسمل الأصبهاني بين كل سورتين سوى براءة خلافا للأزرق إذ زاد وجهين هما السكت والوصل، وقرأ الأصبهاني أيضا عن ورش بضم هاء الكناية من (به) من قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام].

○○○

(3) أي: اقرأ للأصبهاني بقصر المد المنفصل (حركتان) وله فيه أيضا التوسط (أربع حركات) وفويق القصر (ثلاث حركات) وهُما أيضا في المد المتصل ولا يجمع بين فويق قصر المنفصل وتوسط المتصل أو العكس، واقرا أيضا له بتثليث مد عين من فاتحتي مريم والشورى، وكذا بقصر مد البدل جميعه حركتين وبعدم المد في اللين المهموز.

○○○

(4) أي: اقرأ له بتسهيل الهمزة الثانية بين بين وجها واحدا في جميع ما كان من باب الهمزتين المجتمعتين من كلمة وكذلك الحكم أيضا في المتفقتين في الحركة من كلمتين.

○○○

(5) أي: اقرأ له أيضا بإبدال الهمزة الثانية ياء مكسورة من لفظ ﴿أَيِمَّةَ﴾ حيث وقع زيادة على وجه التسهيل بين بين الذي لا يقرأ إلا به للأزرق من طريق الشاطبية. وكذلك له إدخال ألف مدية بين المحققة والمسهلة من لفظ ﴿أَيِمَّةَ﴾ حال التسهيل في موضعين فقط وهما: الثاني من سورة القصص: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾، وفي سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

○○○

(6) أي: قرأ بحذف همزة الاستفهام من لفظ ءَآمَنتُم في مواضعها الثلاثة على الخبر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بالأعراف، و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ بطه والشعراء.

○○○

(7) أبدل الأصبهاني كل همز ساكن حرف مد من جنس حركة ما قبله سوى عشر كلمات: خمسة أسماء وخمسة أفعال فالأسماء: الْكَأْسُ، والرَّأْسُ، والبَأْسُ ومثله البَأْسَاءُ، وَلُؤْلُؤًا كيفما وقعت، ورِئْيًا بسورة مريم؛ والأفعال: هَيِّءْ ومثله يُهَيِّءْ، وَتُؤْوِي ومثله تُؤْوِيه، وما تصرف من: جِئْتُ ونَبِّئْ وقَرَأْتُ.

○○○

(8) حقق الأصبهاني همز لِئَلَّا وَمُؤَذِّن كيف وقعا.

○○○

(9) أي: أبدلَ للأصبهاني الهمزة واوًا مفتوحة من الفُؤَادُ كيف وقع، وياءً مفتوحة من: خَاسِئًا بسورة الملك، ومُلِئَتْ بسورة الجن، و نَاشِئَةَ بسورة المزمل، و فَبِأَيِّ حيث وقع مقترنا بالفاء، وله الوجهان: التحقيق والإبدال فيما تجرد عن الفاء نحو: بِأَيِّ أَرْضٍ.

○○○

(10) أي: سهل له الهمزة من اطْمَأَنُّوا بسورة يونس واطْمَأَنَّ بسورة الحج.

○○○

(11) أي: سهل له الهمزة من رأى في الخبر في ستة مواضع: موضعان في سورة يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]، وموضع بسورة المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: 4]، وموضعان في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: 40]، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل: 44]، وموضع في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [القصص: 31].

○○○

(12) أي: سهل الهمز من لفظ كَأَنَّ حيث وقع مخففا أو مثقلا ومنه ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ [القصص: 81]، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ [القصص: 82].

○○○

(13) أي: سهّل أيضا همزة: تَأَذَّنَ بسورة الأعراف، وله الوجهان في موضع سورة إبراهيم.

○○○

(14) أي: سهّل أيضا الهمزة الثانية بعد الفاء من: أَفَأَنتَ كيف وقعت ومثلها أَفَأَنتُمْ، وأَفَأَصْفَاكُمْ مطلقا، وكذا من أَفَأَمِنَ حيث وقع ومثله أَفَأَمِنتُمْ، ومن لَأَمْلَأَنَّ في جميع مواضعها.



(15) أي: قرأ كلمة النّسِيءُ بالتوبة بالهمز وتخفيف الياء ومدها مدا متصلا.

○○○

(16) أي قرأ بنقل حركة الهمزة إلى اللام بعد إسقاطها من كلمة ملءُ: (ملُ) في قوله تعالى: ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ [آل عمران: 91]، وبترك النقل أيضا فله الوجهان.

○○○

(17) أي: أظهر له تاء التأنيث الساكنة عند حرف الظاء نحو: ﴿حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: 138].

○○○

(18) أي: اختلف عنه بين الإظهار والإدغام في الثاء عند الذال من قوله تعالى: ﴿يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ﴾ [الأعراف: 176]، فله الوجهان.

○○○

(19) أي: أدغم له النون الساكنة والتنوين في اللام والراء مع الغنة وتركها فله الوجهان.

○○○

(20) أي: أظهر النون عند الواو من: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: 1]، وله الوجهان في: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

○○○

(21) أي: أمال الألف من لفظ ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كيف وقع إمالة كبرى ولم يمل سواها، لكن بعضهم قلّل له الهاء والياء من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، والهاء من ﴿طه﴾، والياء من ﴿يسٓ﴾.

○○○

(22) أي: اقرأ له الراءات واللّامات كسوى الأزرق من القراء كحفص مثلاً.

(23) أي: خالف الأصبهاني الأزرق في ست ياءات من ياءات الإضافة: ففتح ياء ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ﴾ [غافر: 26]، وسكن ياء: ﴿وَمَحۡيَايَ﴾ [الأنعام: 162] وجها واحدا، و﴿إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ﴾ [يوسف: 100]، و﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ معاً في سورتي: [النمل: 19، الأحقاف: 15]، و﴿وَلِيَ فِيهَا﴾ [طه: 18].

○○○

(24) أي: أثبت زيادة على ما عند الأزرق من الياءات الزوائد ياءين هما: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠﴾ [الكهف: 39]، و﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ [غافر: 38].

○○○

(25) أي: اقرأ له بوجه التسهيل فقط في الثانية من ﴿أَرَءَيۡتَ﴾، و﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ كيف وقعا في القرآن. وله في هذا الأخير إثبات الألف وحذفها وجهان.

○○○

(26) أي: اقرأ له بإسكان الواو الأولى من ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في سورتي الصافات والواقعة مع نقل حركة الهمزة إليها حال الوصل، واقرأ له أيضا بوصل الهمزة من ﴿أَصۡطَفَى﴾ [الصافات: 153]، فتكسر ابتداء وتحذف وصلا.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وشرف وكرم وعظم.

○○○





ترصيع القلائد بما في أثر ابن مسعود من الفرائد والفوائد

محمد طالبي
مرحلة الدكتوراه

الحمد لله الَّذي منَّ علينا بالتَّوحيد والسُّنَّة، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمة لهذه الأمَّة، أمَّا بعد:

بين يديك ـ أخي القارئ ـ قصَّة ابن مسعود رضي الله عنه مع أصحاب حلقات الذِّكر غير المشروع، فيها عبرة وحجَّة على كلِّ مبتدع وبدعة كما ستراه مسطَّرًا في الفوائد منها، وفيها يدرك كلُّ مسلم أنَّ العمل وإن وافق نيَّة حسنة لَن يصحَّ إلاَّ إذا وافق الشَّرع، وبفضل من الله وحده استنبطت من هذه القصَّة فرائد وفوائد ثمَّ رصَّعتها كالقلائد ليحذر كلّ مسلم من البدع ومن الولوج فيها وإن رآها بادي الرَّأي حسنة، لأنَّ مآلها وخيم كيف لا وهي استدراك على الحكيم العليم، وتخوين للصَّادق الأمين ﷺ كما قال الإمام مالك رحمه الله: «من ابتدع بدعة في الإسلام يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمَّدًا ﷺ خان الرِّسالة، لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»(1).

(1) ينظر: «الاعتصام» (1/ 49).

أوَّلاً ـ نصُّ الأثر:

قال الإمام الدَّارمي في «سننه» (210): أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمرو بن يحيى قال سمعت أبي يحدِّث عن أبيه قال:

كنَّا نجلس على باب عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرَّحمن؟

قلنا: لا، بعدُ، فجلس معنا حتَّى خرج، فلمَّا خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرَّحمن إنِّي رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته ولم أرَ ـ والحمد لله ـ إلاَّ خيرًا.

قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه.

قال: رأيتُ في المسجد قومًا حلَقًا جلوسًا ينتظرون الصَّلاة، في كلِّ حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبِّروا مائة؛ فيكبِّرون مائة، فيقول: هلِّلوا مائة؛ فيهلِّلون مائة، ويقول: سبِّحوا مائة؛ فيسبِّحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟

قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك قال: أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيِّئاتهم وضمنتُ لهم أن لا يَضيعَ من حسناتهم، ثمَّ مضى ومضينا معه حتَّى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم.

فقال: ما هذا الَّذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبد الرَّحمن حصى نعدُّ به التَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح، قال: فعُدُّوا سيِّئاتكم فأنا ضامن أن لا يَضيعَ من حسناتكُم شيءٌ؛ وَيْحَكُم يا أمَّة محمَّد ﷺ ما أَسْرَعَ هَلَكَتَكُم، هؤلاء صحابة نبيِّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تُكسَرْ، والَّذي نفسي بيده إنَّكم لعلى ملَّة هي أهدى من ملَّة محمَّد ﷺ أوَ مفتتحو بابِ ضلالة؟

قالوا: والله يا أبا عبد الرَّحمن ما أردنا إلاَّ الخير؟

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ قومًا يقرؤون

القـرآن لا يجـاوز تراقيهـم، وأيم الله ما أدري لعلَّ أكثرهم منكم، ثمَّ تولَّى عنهم.

فقـال عمرو بـن سـلمة: رأينـا عامَّة أولئك الحلق يطاعنونا يـوم النّهروان مع الخوارج».

ooo

■ ثانيًا ـ تخريج الأثر:

هذا الأثر أخرجه الدَّارمي في «سننه»، بـابٌ في كراهيـة أخـذ الـرَّأي، بالسَّـند المذكور أعلاه، وأخرجه ابن أبي شـيبة في المصنـف (19736) عن عمرو بن يحيى ابن سـلمة عن أبيه عن جده، فذكره وفيه زيـادة لَفظُها: «يَمْرُقُونَ من الإسْـلاَم كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة».

قلتُ: الحكـم بـن المبـارك هـو: أبو صـالح الحكـم ابـن المبارك مـولى باهلة الخاشـتي[2] البلخـي، سـمع مـن الوليد ابـن مسـلم وحمَّاد بـن زيـد، ومالك ابن أنـس ومحمَّد بن راشـد وغيرهـم، وروى عنـه الدَّارمـي وزكريًّا بن يحيـى البلخي وغيرهمـا، مـات سـنة ثـلاث عشـرة ومائتين[3].

قـال عنه أبو عبد الله بن مندة: «أحد الثّقـات»، ووثّقـه الذَّهبي في «الكاشـف»، وذكـره ابن حبَّـان في «الثّقـات»[4]، وكان أَحْمد بـن حنبل يَقُـول: «هُـوَ عندنا ثقة. فقيل لـه: في مالك؟ فقال: في مالك وغير مالك»[5] اهـ.

وعمـرُو بنُ يحيى بن عَمرِو بن سَـلَمَةَ بنِ الحـارث الهمداني، سـمع أباه، وروى عنه ابنُ أبي شـيبة وابـنُ نُمَير وغيرُهما، قـال عنـه ابـنُ معـين: «ثقـة» [«الجـرح والتَّعديل» (6/269)].

وأبـوه يحيـى بـنُ عمـرو بـن سـلمة الهمداني، روى عن أبيه، روى عنه شـعبة والثَّوري والمسعودي وقيس بن الرَّبيع وابنُه عمرو بن يحيى كما قال أبو حاتم [«الجرح والتَّعديل» (9/176)].

ووثَّقه العجْلي [«الثِّقات» (1990)].

وقـال الألبـاني: «ويكفـي في تعديلـه رواية شـعبةَ عنه، فإنَّه كان ينتقي الرِّجالَ الَّذين كان يَـروِي عنهم كما هو مذكورٌ في تَرجَمته» [«الصحيحة» (5/12)].

وأبوه عمرو بن سـلمة الكوفي ثقةٌ كما في «التَّقريب».

وقال الألباني: «وهذا إسناد صحيحٌ... وللحديـث طريـقٌ أخرى عن ابن مسـعود في «المسنَد» (1/404) وفيـه الزِّيـادةُ، وإسـنادُها جيِّد» [«السِّلسـلة الصَّحيحة» (2005)].

ooo

■ ثالثًا ـ شرح المفردات والغريب:

⌑ **صلاة الغداة:** هي صـلاة الفجر، وقد كره بعض السَّـلف تسـميتها بالغداة، قال الإمام الشَّـافعي «اللَّهُ تَعَالَى سَـمَّاهَا الفَجْرَ وَسَـمَّاهَا رَسُـولُ اللَّه ﷺ الصُّبْحَ فَلاَ أُحِبُّ أَنْ تُسَـمَّى بِغَيْرِ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ» اهـ. لكـن ثبـوت تسـميتها بالغـداة في الأحاديث الصَّـحيحة عن رَسُول اللَّه ﷺ والصَّـحابة رضي الله عنهم يـردُّ هـذه الكراهة، فالصَّـحيح إذًا أنَّه يجوز تسميتها بالغداة ولا كراهة في ذلك[6].

⌑ **آنفًا:** أَيْ فِي الزَّمـن القَرِيـبِ مِن القَوْل.

⌑ **كبِّروا مائـة:** أيْ قُولـوا الله أكبر مائة مرَّة.

⌑ **هلِّلوا مائة:** أيْ قُولوا لا إله إلاَّ الله مائة مرَّة.

⌑ **سبِّحوا مائة:** أيْ قُولوا سـبحان الله مائة مرَّة.

⌑ **تَرَاقِيَهُم:** بِفَتْح أَوَّله وَكَسْر القَاف وَفتـح اليَاء عَلـى المَفْعُوليَّة، جمـع تَرْقُوَة. بِفَتْح أَوَّله وَسُكُون الرَّاء وَضَمّ القَاف. عظم بَين فقرة النَّحْر والعاتق وهما ترقوتان من الجانبين، قَـالَ النَّووي: المُرادُ أَنَّهم لَيْس لَهُـم فيه حَـظٌّ إلاَّ مُرُورُهُ عَلَى أَلْسِـنَتِهِمْ لاَ يَصِلُ إِلَى حُلُوقِهِمْ فَضْلاً عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ لأَنَّ المَطْلُوبَ تَعَقُّلُهُ وَتَدَبُّرُهُ بِوُقُوعِهِ فِي القَلْب[7].

⌑ **وأيم الله:** هـو من ألفاظ القسـم كقولـك لعمر اللَّه، وعهد اللَّه، وفيها لغات كثيرة: وتفتح همزتها، وتكسـر، وهمزتها همزة وصـل وقد تقطـع، وأهل الكوفة من النُّحـاة يزعمون أنَّها جمع يمين، وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم[8].

⌑ **يـوم النَّهـروان:** النَّهـروان كـورة واسـعة بـين بغداد وواسـط مـن الجانب الشَّـرقي، حدّها الأعلى متَّصـل ببغداد، وفيها عدَّة بلاد متوسِّـطة منها: إسكاف، وجرجرايا وديرقنا، والصَّـافية وغيرها، وفيهـا أربع لغـات: بفتـح أوَّلها وإسـكان ثانيهـا، وفتـح الـرَّاء وكسـرها وضمّها، ويقال: بضـم النُّون والرَّاء، وإسكان الهاء

(2) قال الحافظ ابن حجر في «التَّهذيب»، (2/ 438): «وقال ابن السَّمعاني خواشت من قرى بلخ وهو حافظ ثقة، وعدَّه ابن عدي في ترجمة أحمد ابن عبد الرَّحمن الوهبي فيمن يسرق الحديث» اهـ. وقال في «تقريب التَّهذيب»، (ص176): «صدوق ربَّما وهم» اهـ.

(3) (4) ينظر في ترجمته «تهذيب الكمال»، المزّي، (7/ 133). «التَّاريخ الكبير»، البخاري، (2/ 344). و«الجرح والتَّعديل»، ابن أبي حاتم، (3/ 128). و«الكاشف»، الذَّهبي، (3/ 128). و«الكنى والأسماء»، مسلم ابن الحجاج، (1/ 438).

(4) ينظر «الثّقات» ابن حبَّان (2/ 344).

(5) ينظر: «الأنساب» السَّمعاني (5/ 17).

(6) ينظر: «شرح السُّنَّة» البغوي (2/ 222)، و«شرح صحيح مسلم» النَّووي (5/ 11.10).

(7) ينظر: «نيل الأوطار» الشَّوكاني (7/ 194)، و«عون المعبود» شمس الحق العظيم آبادي (13/ 111).

(8) ينظر: «شرح سنن أبي داود»، بدر الدِّين العيني (6/ 276).

في جميعها، وأكثر ما يجري على الألسنة بكسر النُّون، وبهذه الكورة كان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقعته المشهورة مع الخوارج[9].



■ رابعًا ـ الفوائد المنتقاة:

⌑ الحرص على طلب العلم:

قول الرَّاوي «كنَّا نجلس على باب عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قبل صلاة الغداة» فيه حرص السَّلف على طلب العلم والتَّبكير إليه.

⌑ ⌑ ⌑

(9) ينظر: «معجم البلدان» (5/ 324).

⌑ قاعدة سلفيَّة «كلّ بدعة ضلالة» وإن كان ظاهرها خيرًا:

قول أبي موسى رضي الله عنه: «إنِّي رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته ولم أرَ والحمد لله إلاَّ خيرًا» فيه أنَّ البدعة قد يكون ظاهرها خيرًا، فيجب على المسلم أن يحذر منها وأن لا يغترَّ بظاهرها، لأنَّ العبرة بالحقائق، وكلّ بدعة ضلالة.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ الذِّكر الجماعي بصوت واحد بدعة عند السَّلف الصَّالح:

قول أبي موسى رضي الله عنه: «رأيتُ في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا...ويقول سبِّحوا مائة فيسبِّحون مائة» فيه أنَّ الذِّكر الجماعي بصوت واحد كما يفعله اليوم بعض الطُّرق الصُّوفية أو بعض الفرق الحزبيَّة غير مشروع، بل هو بدعة، ولو سمّوه مأثورات فإنَّ هذه الصِّفة غير مأثورة لذا أنكرها ابن مسعود رضي الله عنه.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ الرُّجوع إلى العلماء سنَّة ماضية عند السَّلف من تركها فقد ضلّ:

قول أبي موسى رضي الله عنه: «ما قلتُ لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك» تأمَّل هنا أدب طالب العلم من السَّلف مع العلماء كيف أنَّه لا يتكلَّم في مسألة حتَّى يرى موقف العلماء منها، وكيف يأمرون بالتَّعامل معها، خاصَّة إن كانت هذه المسألة تعمُّ بها البلوى في الأمَّة، أو في زمن الفتن المدلهمَّة، وهذه فائدة عزيزة ما أحوج طلاَّب العلم اليوم إليها.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ عَدُّ التَّسبيح ونحوه بالمسبِّحة ونحوها مذموم عند السَّلف:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «فعدُّوا سيِّئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء» لمن رآهم يعدُّون التَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح بالحصى، فيه؛ إشارة إلى أنَّ السُّنَّة في عدِّ التَّسبيح ونحوه من الذِّكر إنَّما يكون باليد الَّتي هي مسؤولة ومستنطقة يوم القيامة كما صحَّ ذلك عن نبيِّنا ﷺ قولاً وفعلاً، ومع أنَّ استعمال المسبحة ونحوها من الآلات المخترعة مخالف للسُّنَّة.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ قاعدة سلفيَّة «خير الهدي هدي محمَّد ﷺ»:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «والَّذي نفسي بيده إنَّكم لعلى ملَّة هي أهدى من ملَّة محمَّد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة» فيه أنَّ كلّ من زاد على السُّنَّة شيئًا يخالف سببها أو جنسها أو قدرها أو كيفيتها أو زمانها أو مكانها، فإنَّه لا يخلو من أحد أمرين:

الأوَّل: أن يكون على ملَّة هي أهدى من ملَّة محمَّد ﷺ.

الثَّاني: أن يكون مفتتحًا باب ضلالة.

وإذا كان الأوَّل مستحيلاً في الشَّرع، فأيقن أنَّه يتعيَّن الثَّاني؛ لأنَّ خير الهدي هدي محمَّد ﷺ، وهذه القاعدة كان يقرِّرها ﷺ في خطبه.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ كلّ مبتدع يحتجُّ لبدعته بأنّه ما أراد بها إلاَّ الخير:

قول أصحاب الحلق لابن مسعود رضي الله عنه: «والله يا أبا عبد الرَّحمن ما أردنا إلاَّ الخير» فيه أنَّ كلَّ مبتدع إذا بُيِّنت له السُّنَّة وأقيمت عليه الحجَّة ورأى أنَّه لا مناص له، ولا محيد له عنها ادَّعى أنَّه ما أراد إلاَّ الخير، ولكنَّها حجَّة داحضة بالقاعدة السَّلفيَّة الآتية.

⌑⌑⌑

⌑ قاعدة سلفيَّة في ردِّ كلّ بدعة خلفيَّة «وكم من مريدٍ للخير لن يصيبه»:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «وكم من مريد للخير لن يصيبه» فيه ردٌّ على ما يحتجُّ به المبتدعة من حسن النِّيَّة وسلامة القصد، ولو كانوا صادقين حقًّا لتركوا بدعتهم وسلَّموا للسُّنَّة إذْ بُيِّنت لهم؛ ولأنَّ حُسْنَ النِّيَّة وسلامة القصد، لا يكفيان في قبول العمل بل لابدَّ معهما من الموافقة للسُّنَّة في سببها وجنسها وقدرها وكيفيتها وزمانها ومكانها، ولتكن لنا عبرة في قوله ﷺ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[10] لأولئك النَّفر الثَّلاث من أصحاب رسول الله ﷺ الَّذين لا يشكُّ أحد في حسن نيَّتهم وسلامة قصدهم حين تفرَّغوا للعبادة بصيام النَّهار وقيام اللَّيل وترك الزَّواج، ولكن لـمَّا كان هذا العمل لا يوافق السُّنَّة ـ وإن كان خالصًا لله وحده ـ قال لهم ﷺ ما قال، ولـمَّا كانوا رضي الله عنهم أصحاب سنَّة تركوا ما أرادوا ولم يحتجُّوا بحسن نيَّتهم وسلامة قصدهم، وأمَّا أصحاب تلك الحلق لـمَّا كان أكثرهم مبتدعة لم يتركوا ما شرعوا فيه واحتجُّوا بحسن نيَّتهم وسلامة قصدهم، وتأمَّل مآلهم فهل من مُعتبر.

⌑⌑⌑

⌑ فراسة ابن مسعود رضي الله عنه:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله ما أدري لعلَّ أكثرهم منكم» فيه فراسة ابن مسعود رضي الله عنه، وصدق فيه ما رواه أنس مرفوعًا «إنَّ لله عبادًا يعرفون النَّاس بالتَّوسُّم»[11] وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال النَّاس بنوع من الكرامات وإصابة الحدس والنَّظر والظَّنّ والتَّثبُّت[12]، ودليل هذا التَّوسم ما ستراه في الفائدة الآتية.

⌑⌑⌑

⌑ الحذر من صغار البدع والمحدثات مِن الأمور، فإنَّها تعود كبارًا:

قول عمرو بن سلمة: «رأينا عامَّة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النَّهروان مع الخوارج» فيه أنَّه يجب على المسلم أن يحذر من البدعة ولو كانت صغيرة وأن لا يستهين بها؛ لأنَّ البدعة الصَّغيرة إذا عشَّشت ستفرِّخ ثمَّ تعود كبيرة ويعسُر الانفكاك عنها، قال الإمام البربهاري رحمه الله: «واحذر صغارَ المحدثات من الأمور فإنَّ صغار البدع تعود حتَّى تصير كبارًا وكذلك كلّ بدعة أُحدثت في هذه الأمَّة كان أوَّلها صغيرًا يُشبه الحقّ فاغترَّ بذلك من دخل فيها ثمَّ لم يستطع المخرج منها فعظمت وصارت دينًا يُدان بها فخالف الصِّراط المستقيم»[13]، صدق رحمه الله وتأمَّل ما قاله البربهاري وفراسة ابن مسعود رضي الله عنه في مآل أهل تلك الحلق كيف بدأوا بالذِّكر الجماعي الَّذي ظاهره الخير يُشبه الحقّ، ولكن لـمَّا كانت حقيقة اجتماعهم بدعة (وكلّ بدعة ضلالة) تمكَّنت هذه البدعة من القلوب وصارت دينًا يُدان به، بل ويُكفَّر من أجله أصحاب رسول الله ﷺ ويقاتَلُون كما في يوم النَّهروان.

⌑⌑⌑

⌑ خلاصة أثر ابن مسعود رضي الله عنه وعن الصَّحابة أجمعين أنَّ العبرة ليست بكثرة العبادة وإنَّما بكونها على السُّنَّة، لأنَّ الاقتصاد في السُّنَّة خير من الاجتهاد في البدعة:

هذا أبرز ما عنَّ لي في أثر ابن مسعود رضي الله عنه من الفوائد فإن وفِّقت في استنباطها وجمعها فالفضل يرجع إلى الله وحده، وما كان فيها من خطأ وزلل فمن نفسي والشَّيطان ونعوذ بالله من الضَّلال والخسران.

■■■

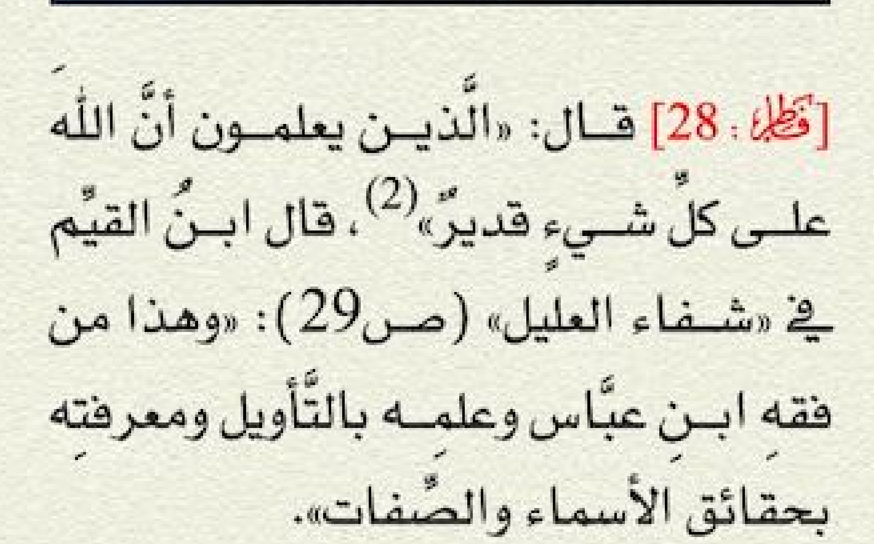
(10) أخرجه البخاري في «صحيحه» (4776)، ومسلم في «صحيحه» (1401) من حديث أنس رضي الله عنه.

(11) ينظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» الألباني (1693).

(12) ينظر: «تحفة الأحوذي» المباركفوري (8/ 441).

(13) ينظر: «شرح السُّنَّة» البربهاري (ص: 23).





مذاهب الناس في الإيمان بالقدر

عمر الحاج مسعود

الإيمانُ بالقدرِ أحَدُ أركان الإيمان السِّتَّة المذكورة في حديث عُمَر رضي الله عنه لَمَّا سأل جبريل عليه السلام رسولَ الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئكته وكُتُبه ورُسُله واليَوْم الآخِر، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه» رواه مسلم (8).

وهو حديثٌ جليلٌ، جاء في بدايَته أنَّ عبدَ الله بنَ عمر رضي الله عنهما سُئِلَ عن قَوم «يزعُمون أنْ لا قدَرَ، وأنَّ الأمْرَ أُنُفٌ، قال: فإذا لقيتَ أُولئكَ فأَخبرهم أنِّي بريءٌ منهم وأنَّهم بُرآءُ منِّي، والَّذي يحلفُ به عبدُ الله بنُ عمر لو أنَّ لأحدهم مثلَ أُحُد ذهبًا فأنْفَقه ما قَبِلَ اللهُ منه حتَّى يُؤمنَ بالقَدَر» ثمَّ قال: حدَّثني أبي عمرُ ابنُ الخَطَّاب»، فذكر الحديث.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سُورَةُ القَمَرِ]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ]، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَعْلَى]، وقال طاووس رحمه الله: «أدركتُ ناسًا من أصحابِ رسول الله ﷺ يقولونَ: كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، وسَمِعتُ عبدَ الله ابنَ عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ والكَيْسُ أو الكيسُ والعجزُ» رواه مسلم (2655).

¤ ¤ ¤

تعريف القدر:

القَدَر لغةً: التَّقديرُ والحُكمُ والقَضاءُ.

وشرعًا: هو تقديرُ الله تعالى لِمَا كان وما يكون أزلاً وأبدًا، وعلمُه به، وكتابتُه ومشيئتُه النَّافذةُ وخلقُه له.

فهو ما سبق به علمُه وجرى به قلمُه أنَّه سيَقَعُ في أوقاتٍ معلومةٍ وعلى صِفاتٍ مخصوصة.

والإيمانُ بالقدرِ يتَعلَّقُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ أكثرَ من تَعلُّقه بتوحيد الألوهيَّة والأسماءِ والصِّفات، ثمَّ بالأسماء والصِّفات؛ لأنَّه يتضمَّنُ الإيمانَ بقدرة الله وعلمِه ومشيئته، وإنكارُه إنكارٌ لقدرَته تعالى على خلقِ أعمال العباد وكتابتها ومشيئتها، ولهذا قال الإمامُ أحمد: «القَدَر قُدرَةُ الله»[1].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: 28] قال: «الَّذين يعلمون أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ»[2]، قال ابنُ القيِّم في «شفاء العليل» (ص29): «وهذا من فقه ابنِ عبَّاس وعلمه بالتَّأويل ومعرفتِه بحقائق الأسماء والصِّفات».

¤ ¤ ¤

والنَّاس في القدرِ ومراتبِه ثلاثُ طوائفَ مشهورة:

¤ **الطَّائفةُ الأولى القدريَّة المجوسيَّة[3]:**

«تُثبِتُ الأمرَ والنَّهيَ، وتنفي القضاءَ والقدرَ»[4] أثبتوا للعبد قدرةً واختيارًا، وغلاتُهم الأوائلُ أنكروا العلمَ المتقدِّمَ والكتابَ السَّابقَ، بمعنى أنَّه تعالى لا يَعلَمُ شيئًا من أعمالِ العباد قَبلَ وُقوعها، وإنَّما يَعلَمُها بعد وقوعها فالأمر عندهم أُنُفٌ، فانبرى لهم علماءُ الإسلام وعساكرُ السُّنَّة ـ على رأسهم صحابةُ رسولِ الله ﷺ ـ، وتبرَّؤوا منهم، ثمَّ صار جمهورهم

(1) «مجموع الفتاوى» (8/ 308)، ورواه ابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرى» (1563) عن عمر رضي الله عنه.

(2) رواه الطَّبري في «تفسيره» (19/ 364).

(3) تنبيه:
القدريَّةُ اسمٌ لمُنكري القدر، على خلاف الأصل في التَّسمية والنِّسبة، حيث تكون للإثبات، تقول سُنِّي لمتَّبع السُّنَّة، سلفيٌّ لمتَّبع السَّلف، رافضيٌّ لمتَّبع الرَّوافض.

(4) «الاستقامة» لابن تيمية (1/ 433).

يقولون بالعلم المُتقدِّم والكتابِ السَّابِق، لكن يُنكِرُون عمومَ المشيئة والخلق والقدرة، فأنكَرُوا أن يكون الله ﷻ خالقًا لأفعال العباد أو قادرًا عليها، وهؤلاء هم القدريَّةُ مجوسُ هذه الأمَّة، الَّذين قال فيهم النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسًا وَإِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ القَدَرِيَّةُ» رواه ابنُ أبي عاصم في كتاب «السُّنَّة» (342) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصحَّحه الألباني لشواهده.

ووجه تَشبيهِهم بالمجوس أنَّ المجوسَ يقولون: إنَّ للحوادث خالقَين، خالقًا للخَير وهو النُّور، وخالقًا للشَّرِّ وهو الظُّلمة، وهؤلاء يقولون: اللهُ خالقٌ للعباد وأعيانهم وأوصافهم غيرُ خالق لأفعالهم، فلم يُرِدْها ولم يَشَأْها، بل هم الَّذين أرادوها وأحدثوها، فيشهدون أنَّ العبادَ خَالِقُون لأفعالهم خيرها وشرِّها، وأنَّها لا تَدخُل تحت القدَر، فضاهَوا المجوسَ وأثبتوا خالقَيْن.

فهؤلاء يشهدون «أنَّ اللهَ لم يقدِّرْ ذلك عليهم ولم يكتُبْه، ولا شاء ولا خلق أفعالَهم، وأنَّه لا يَقدرُ أن يَهديَ أحدًا ولا يُضلَّه إلاَّ بمُجرَّد البيان، لا أنَّه يُلهِمُه الهُدَى والضَّلالَ والفجورَ والتَّقوى، فيَجعَل ذلك في قَلبه، ويشهدون أنَّه يكون في مُلك الله ما لا يشاؤه وأنَّه يشاء ما لا يكون، وأنَّ العبادَ خالِقُون لأفعالهم بدون مشيئة الله»[5].

وحقيقة قولهم إنَّ اللهَ ﷻ ليس قديرًا، تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

◎ بطلان قولهم:

وقولُ القدريَّة باطلٌ شرعًا وعقلاً:

أمَّا شرعًا فلأنَّ اللهَ ﷻ خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا يقع شيءٌ إلاَّ بعلمه ومشيئته، فكيف تكون أعمالُ العباد خارجةً عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [سورة البقرة]، كما أنَّه كتب مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلقَ السَّموات والأرضَ بخمسين ألفَ سنة، ومن ذلك أفعالُ العباد.

وأمَّا عقلاً فالله ﷻ هو الرَّبُّ المالكُ المُدبِّرُ، ولا يكون في مُلكه إلاَّ ما شاءه وأراده، والعبد مربوبٌ مملوكٌ، لا حَولَ له ولا قوَّةَ إلاَّ بربِّه وسيِّده ومولاه، فكيف يُفعلُ أو يُتَصَرَّف في ملكه تعالى بغير مشيئته؟ ولأنَّ الأفعالَ إذا كانت خارجةً عن قدرته ومشيئته فهي خارجةٌ أيضا عن ملكه.

وزعم القدريَّةُ أنَّ الله شاء الإيمانَ من الكافر، ولكن شاء هو الكفر، فوقعت مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد[6].

والحقيقةُ أنَّ هؤلاء لم يُفرِّقوا بين الخَلْقِ والفعْل، ولم يُدرِكُوا أنَّ الفعلَ فعلُ العبد، ولكنَّه مخلوقٌ لله تعالى وليس هو نفسَ فعلِ الله، ففرقٌ بين الفعل والمفعول.

«قالوا: إذا قلنا إنَّ اللهَ هو الَّذي خَلَقَه فمعناه هو الَّذي فَعَل؛ لأنَّ هناك تلازمًا عندهم بين الفعل والخلق، - كونه فعَل يعني خلَق - وهذا مُمتَنِعٌ، فإذن يكون العبد هو الَّذي خلق.

أيضًا، لو قلنا إنَّ اللهَ هو الَّذي خَلَقَ ذلك معناه أَلْغَيْنَا إرادةَ العبد، وإذا ألغينا إرادةَ العبد كان مجبورًا على المعصية، وهذا يَقدَحُ في العدل، والله جلَّ وعلا مُنزَّهٌ عن الظُّلم، وله صفةُ العدل»[7].

⌑ ⌑ ⌑



⌑ الطَّائفة الثَّانية: الجبْرِيَّة الجهْمِيَّةُ:

أثبتوا قَدَرَ الله جلَّ وعلا، لكنَّهم غَلَوْا، حتَّى سَلَبوا العبدَ مشيئتَه، فقالوا لا إرادة له ولا مشيئةَ ولا اختيارَ على فعلِ شيءٍ، إنَّما هو كالرِّيشة في الهواء، فيشهدون أنَّ العبادَ «مجبورون على أفعالهم، وأنَّها واقعةٌ بغير قدرتهم، بل لا يَشهَدُون أنَّها أفعالُهم ألبتَّةَ، يقولون إنَّ أحدَهم غيرُ فاعلٍ في الحقيقة ولا قادر، وأنَّ الفاعلَ فيه غيرُه والمحرِّكَ له سواه، وأنَّه آلةٌ مَحضَةٌ، وحركاته بمنزلة هُبوب الرِّياح وحركات الأشجار»[8].

وهؤلاء «قدريَّةٌ مشركيَّةٌ... تُثبِتُ القضاءَ والقدَرَ وتُكذِّبُ بالأمرِ والنَّهي أو ببعض ذلك»[9].

وقد تُسمَّى الجبْريَّةُ «قدَريَّةً» لغلوِّهم في إثْبات القَدَر وخوضهم فيه بالباطل، قال الخَلاَّل في «السُّنَّة» (3/ 549): «الرَّدُّ على القدريَّة وقولهم: إنَّ اللهَ جَبَرَ العبادَ على المعاصي».

ولكَونِهم يَحتَجُّون بالقَدرِ على المعاصي، قال ابنُ تيمية في «المجموع»

(5) قاله ابنُ القيِّم في «مدارج السَّالكين» (1/ 405 - 406).

(6) انظر «شرح الطَّحاوية» (1/ 321).

(7) «شرح الواسطيَّة» لصالح آل الشَّيخ (2/ 298).

(8) «مدارج السَّالكين» (1/ 404).

(9) «الاستقامة» لابن تيمية (1/ 433).

(3/ 322): «ولهـذا كَانَ يَدْخُـلُ عِنْدَهُم - أي السَّلف - المُجبِرَةُ في مُسَمَّى القَدَرِيَّة المذمومين لخَوْضهم في القدَر بالباطل؛ إذْ هَذَا جِمَاعُ المَعْنَى الَّذِي ذُمَّت بِه القدَرِيَّةُ».

وهـؤلاء شرٌّ مـن المجوسـيَّة؛ لأنَّهـم يحتجُّـون بالقـدر علـى أفعالهـم، وأنَّهـا موافقـةٌ لإرادة الـرَّبِّ ﷻ، وأنَّ العبدَ - في الحقيقـة - لم يفعل إلاَّ مـا أُمر به، فقولُهم يَؤُولُ إلى إبطالِ الشَّرعِ والأمرِ والنَّهي.

ويحتجُّـون بالقـدر علـى المعاصـي، كمـا يقول بعضُ النَّاس - إذا قلتَ له مثلاً لمَ لا تصـلِّي؟ - قـال: «الله غالب، ربي ما هدانيش» أي: إنَّ الله لم يَهْدني.

◎ الاحتجاجُ بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور باطلٌ شرعًا وعقلاً[10]:

إنَّ الاحتجـاجَ بالقـدَرِ والاعتـذارَ بالقضـاء على معصيـة الله وتـرك أمرِه باطلٌ بالكتاب والسُّنَّة والعقل.

✧ فمن الكتاب:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام]، تخرُصـون: أي تكذبـون علـى الله في دعواكـم، ولو كانت حُجَّتُهم صـحيحةً ما أذاقَهم الله بأسَـه، ويقال لهم أيضًـا: لماذا لم تؤمنُوا كما آمن غيرُكم.

وقال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، فأبطل الله حجَّـة النَّـاس بإنـزال الكُتب وإرسـال الرُّسـل، ولو كان القـدرُ حجَّـةً مـا انتفَـت بإرسـالهم؛ لأنَّ القدرَ باقٍ حتَّى مع ذلك.

وإبْليسُ أَصرَّ واحتجَّ بالقَدَر، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر] فـكان رجيمًا، وأمَّا آدم عليه السلام فإنَّه استغفر وتاب وقـال هو وزوجُـه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، فكان مَرحومًا.

«فَمَنْ اسْتَغْفَرَ وَتَابَ كَانَ آدَمِيًّا سَعِيدًا وَمَـنْ أَصَـرَّ وَاحْتَجَّ بالقَـدَرِ كَانَ إبليسـيًّا شَقِيًّا»[11].

قـال أصحـابُ النَّـار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106]، ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾، فاعترفـوا وندمـوا، ولـو كان القـدر حجَّـةً وعـذرًا لاحتجُّوا به.

✧ ومن السُّنَّة:

لم يجعـلِ النَّبـيُّ ﷺ القدرَ مُسـوِّغًا لترك العمل، فعن علي رضي الله عنه أنَّ رسـولَ الله ﷺ قـال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إلاَّ وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِـنَ الجَنَّةِ وَالنَّـارِ» قالوا: يا رسـولَ الله فلمَ نعمـلُ؟ أَفَلاَ نَتَّـكِلُ؟ قَالَ: «لا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّـرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلَى قَوْلِـه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾» رواه البخاري (4945) ومسلم (2647).

ولهما في رواية «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّـرٌ، أَمَّـا أَهْلُ السَّـعَادَةِ فَيُيَسَّـرُونَ لِعَمَـلِ أَهْلِ السَّـعَادَةِ، وَأَمَّـا أَهْلُ الشَّـقَاوَةِ فَيُيَسَّـرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ».

✧ ومن العقل:

- لو ظُلمَ إنسـانٌ وضُـربَ وأُخِـذَ حقُّهُ لم يَحْتَـجَّ بالقدرِ، بل يَسـعَى لاسْـترجَاعِه ورَفع الظُّلم عن نَفسـه، قال ابنُ تيمية في «التَّدمريَّـة» (ص96): «وأمَّـا مُخالَفتُهم لضـرورة العقـل والقيـاس؛ فـإنَّ الواحدَ من هـؤلاء لا يُمكنُـه أن يَطرُدَ قولَـه فإنَّه إذا كان مُشـاهدًا للقدر مـن غير تمييز بين المأمور والمحظور فعُومِلَ بمُوجَب ذلك مثلُ أن يُضـرَب ويُجَاع حتَّى يُبتلى بعظيم الأوصـابِ والأوجاع فإنْ لام مَنْ فَعلَ ذلكَ به وعابَه فقد نَقضَ قَولَه وخرَجَ عن أصلِ مَذهَبه وقيـل له: هذا الَّذي فعَلَه مَقْضـيٌّ مَقدورٌ، فخَلقُ الله وقَدرُه ومشيئتُه مُتَناولٌ لـك وله وهو يعمُّكما، فإن كان القَدرُ حجَّةً لك فهو حجَّةٌ لهذا، وإلاَّ فليس بحجَّةٍ لا لك ولا له».

- الواحد مـن هؤلاء يُفرِّقُ بـين العالم والجاهـل وبـين الطَّيِّـب والخبيث وبـينَ العـادلِ والظَّـالم، فكيـف لا يفـرِّقُ بـين الطَّاعة والمعصية؟

- ويقال: أنـتَ لا تَعلَمُ ما في الغيب، ولا تعلم ماذا كُتبَ لك، لكن لك إرادةٌ ومشيئةٌ واختيـارٌ، وقـد اخـترت المعصـية، فلِمَ لا تختار الطَّاعةَ وقد أُمرتَ بها.

- رجـلٌ يريدُ الوَلَـدَ دون زواج، فهـذا أَحمَـقُ، فكيف يكون حالُ مـن يريد الفوزَ بالجنَّة والنَّجاةَ من النَّارِ دون إيمانٍ وعملٍ صالح.

- العاقـل يختـار في أمـور دنيـاه مـا يلائمـه، فلو خُـيِّرَ هذا المُحتَـجُّ بالقدَرِ في سَـفره بين بلدَيـن أحدُهما آمـنٌ والثَّاني مَخُـوفٌ، فلا شـكَّ أنَّـه يختـار الأوَّل، ولا يختار الثَّاني احتجاجًـا بالقدر، فلماذا لا يختار الطَّريقَ الآمنَ في سَفره للآخرة؟

- وتجـد كلَّ عاقـلٍ حريصًـا علـى مَصـالحه الدُّنيويَّـة، فيطلب الوظيفةَ ويَحرِصُ علـى جَمعِ المـال، ولا يَحتَـجُّ بالقدَر.

---

(10) انظر «المجموع» (2/ 300 - 303، 8/ 59، 178)، «التَّدمريَّة» (ص91)، «شفاء العليل» (ص15)، «مدارج السَّالكين» (1/ 189)، «القول المفيد» (2/ 406).

(11) «مجموع الفتاوى» (2/ 303).

◎ مفاسد الاحتجاج بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور:

للاحتجاج بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور مفاسدُ عظيمةٌ ونتائجُ وخيمةٌ؛ منها:

- إبطالُ الشَّرع وتَركُ العمل.

- التَّسويةُ بين المؤمنين والكفَّار والطَّائعين والعُصاة، وبين الأعمى والبصير، والله يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [سورة فاطر]، ويقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة ص]، وهذا استفهامٌ إنكاريٌّ، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الجاثية]، فلا يُسوَّى بين مُختلفَين كما لا يُفرَّق بين مُتماثلَين.

- التَّسويةُ بين القدر والمحبَّة، فكلُّ ما قدَّره الله فقد أحبَّه ورَضيَه.

- إبليسُ وفرعونُ وقومُ نوحٍ وغيرُهم من الأمم الَّتي أهلَكَها الله معذورون على كُفرهم؛ لأنَّه قَدَرُ الله.

- تعطيل الحدود والتَّعزيرات والعقوبات؛ لأنَّ المُسيءَ الظَّالمَ يحتجُّ بالقدر، وهذا سببٌ لفُشوِّ الظُّلم وانتشار الفوضى وفقد الأمن.

قال ابنُ تيمية في «المجموع» (2/ 301): «لو جاز أنْ يحتجَّ كلُّ أحد بالقدر لَمَا عُوقِبَ مُعْتَدٍ، ولا اقْتُصَّ من ظالم بَاغٍ، ولا أُخِذَ لمظلوم حقُّه من ظالمه، ولَفَعَلَ كلُّ أحدٍ ما يشتهيه من غير مُعارِضٍ يُعارِضُه».

⌑ ⌑ ⌑



■ متى يسوغ الاحتجاج بالقدر:

يسوغ الاحتجاجُ بالقدر عند المصائب، فالسَّعيدُ يَستغفرُ من المعائب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: 55]، والشَّقيُّ يَجزَعُ عند المصائب، ويحتجُّ بالقدر على المعائب.

ويسوغُ الاحتجاجُ بالقَدَر عند التَّوبة من الذَّنب، فلو لامه أحدٌ على ذنبٍ تاب منه لساغ له أن يَحتَجَّ بالقدر[12].

والسَّببُ أنَّ الأثرَ المُترتِّبَ على ذلك قد زال بالتَّوبة، فلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَحضُ القَدَرِ الَّذي احتجَّ به، لا ليستَمِرَّ على ترك الواجب أو فعل المحظور، ولكن توبةً وندمًا وإيمانًا بأنَّه قَدَرُ الله الَّذي لا مردَّ له.

وحرف المسألة: أنَّ اللَّومَ إذا ارتفع صحَّ الاحتجاجُ بالقدر، وإذا كان واقعًا كان الاحتجاجُ باطلاً، وما أجملَ قولَ الإمام ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العقائد الإسلاميَّة» (ص74): «فالقدرُ في دائرة الاعتقاد، والشَّرعُ في دائرة العمل».

⌑ ⌑ ⌑

(12) انظر «شفاء العليل» (ص35) وراجع شرح حديث: «حج آدم موسى..».

■ أساسُ الضَّلال في هذا الباب التَّسويةُ بين المشيئة والمَحبَّة:

ومَنشأُ الضَّلال في هذا الباب من التَّسوية بينهما أو اعتقاد تلازُمهما؛ فسوَّى بينهما الجبريَّةُ والقدريَّةُ وقالوا المشيئةُ والمحبَّةُ سواء أو متلازمان، ثمَّ اختلفوا[13]:

فقالت الجبريَّةُ: الكونُ كلُّه قضاؤُه وقَدرُه طاعتُه ومعصيتُه خيرُه وشرُّه، فهو محبوبُه، ثمَّ بَنَوْا على ذلك أنَّهم مأمورون بالرِّضا بالقضاء، وهذه قضاء من قضائه فنحن نرضى بها فمَا لَنَا ولإنكارها ومعاداة فاعلها؟ فتركَّب من اعتقادهم كونَها محبوبةً للرَّبِّ وكونَهم مأمورين بالرِّضا بها التَّسويةُ بين الأفعال وعدمُ استقباح شيءٍ منها أو إنكاره.

وقالت القدريَّةُ النُّفاةُ: ليست المعاصي محبوبةً لله ولا مَرْضيَّةً له، فليست مُقدَّرةً له ولا مَقضيَّةً، بل هي خارجةٌ عن مشيئته وخلقه، قالوا: ونحن مأمورون بالرِّضا بالقضاء ومأمورون بسخط هذه الأفعال وبُغضها وكَراهتها، فليست هي إذًا بقضاء الله؛ إذ الرِّضا والقضاءُ متلازمان كما أنَّ مَحبَّته ومشيئَته متلازمان أو مُتَّحدان.

ومذهبُ سلف الأمَّة وأئمَّتها أنَّ كلَّ شيءٍ وُجد بمشيئته وقضائه، فإنَّه تعالى يَخلُقُ ما يُحبُّ وما يكره، وهذا كما أنَّ الأعيانَ كلَّها خلقُه، وفيها ما يُبغضُه ويكرَهُه؛ كإبليس وجُنوده وسائر الأعيان الخبيثة، وفيها ما يُحبُّه ويرضاه كأنبيائه ورُسله وملائكته وأوليائه، وهكذا الأفعالُ كلُّها خَلقُه، منها ما هو محبوبٌ له ومنها ما هو مكروهٌ له، خَلَقَه لحكمة له في خَلق ما يَكرَه ويُبغضُ، كالأعيان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة]،

(13) انظر «مدارج السَّالكين» (1/ 251).

معَ أنَّه بمشيئته وقضائه وقَدرِه، وقد فطر اللهُ عبادَه على قولهم: هـذا الفعلُ يُحبُّه اللهُ وهـذا يَكرَهُـه اللهُ ويُبغِضُـه، وفلانٌ يفعل ما لا يحبُّه اللهُ.

كما أنهـم يُثبِتُونَ الفرقَ بين مشيئته وبين محبَّته، فيقولون: إنَّ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ـ وإن وقع بمشيئته ـ فهو لا يحبُّه ولا يرضاه بل يَسْخَطُهُ ويبغضُهُ.

يوضِّحه أنَّ إرَادَةَ اللهِ نَوْعَان[14]:

الأوَّل: إرادةٌ كونيَّـةٌ قدريَّـةٌ بمعنـى المشيئة، فمـا شـاء الله كان وما لم يَشَـأْ لم يكـنْ، كقَوْلـه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: 125]، ولا يلـزم مـن إرادته الشَّيءَ قدرًا أن يكون محبوبًا له.

الثَّـاني: إرادةٌ شـرعيَّةٌ دينيَّـةٌ بمعنى المحبَّة والرِّضى بما أمر به؛ كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185].

والفرق بينهما:

1 ـ أنَّ الإرادةَ الكونيَّةَ يَلزَمُ منها وقوعُ المُراد، والشَّرعيَّةَ لا يلزم منها وقوعُه.

2 ـ الإرادةُ الشَّرعيَّةُ تَختَصُّ بما يُحبُّه اللهُ ويرضـاه، والكونيَّةُ عامَّـةٌ فيما يُحبُّه وفيما يكرهه.

3 ـ تجتمـع الإرادتـان في حـقِّ المُطيعِ وتَنفَردُ الكونيَّةُ في حقِّ العاصي.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ الطَّائفـةُ الثَّالثة وهم أهل السُّنَّةِ والجماعة، وسط بين الطَّائفتَيْن.

وقولُهـم في هذا البابِ هو الإيمانُ بأنَّ الله ﷻ خالقُ كلِّ شـيءٍ وربُّه ومليكه، فما شـاء كان ومـا لم يَشَـأْ لم يكـنْ، ولا حول ولا قـوَّةَ إلاَّ به، ولا يكون شـيءٌ في الوجود إلاَّ بمشـيئته وعلمـه وإذنـه، يدخـل في هـذا أفعـالُ العبـاد وغيرُها مـن الأعيان والصِّـفات والحـركات، فـالله ﷻ قـدَّرَ مقاديـرَ الخلائق قبـل أن يَخلُقَهم، وقدَّرَ أعمالَهم وأرزاقَهم وآجالَهم ومَصيـرَهم، وكتب كلَّ ذلك.

فيؤمنـون بعلمـه وكتابتـه ومشيئته وخلقه، وهذه هي مراتبُ القضـاء والقدر الَّتي يجب الإيمانُ بها، ومن لم يَستَكمِلْها لم يُؤمِنْ بالقدر.

كما يؤمنـون بـأنَّ للعبـد اختيـارًا ومشـيئةً، وفعـلاً وقـدرةً، لكـن كلُّ ذلـك تابـعٌ لمشـيئة الله جـلَّ وعـلا، قـال الله تعـالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [سورة التكوير]، ففـي الآيـة إثبـاتٌ لمشيئة العبـد، لكنَّهـا تابعةٌ لمشيئة الـرَّبِّ ﷻ، وقال تعـالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152]، فللعبد إرادةٌ، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [سورة النساء]، فالعبدُ فاعـل، ولـذا أمرَه اللهُ بالطَّاعة ونهاه عن المعصية، ولو كان مُجبرًا لـكان أمرُه غيرَ ممكن، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وهذا يدلُّ على أنَّ العبدَ قادرٌ على فعل الطَّاعة واجتنابِ المعصية، ولكن ذلك بتوفيق اللهِ ورَحمَته وفَضله.

والصِّـراطُ المسـتقيمُ كما يقـول ابنُ القيِّـم في «المدارج» (94/1): «هـو أنَّ الأعمـالَ أسـبابٌ مُوصِلـةٌ إلى الثَّـواب والعقابِ مُقتَضِـيةٌ لهمـا كاقتضـاء سـائر الأسباب لمُسَبَّباتها، وأنَّ الأعمالَ الصَّالحة من توفيق اللهِ وفضلـه ومَنِّه وصدقته على عبدِه إن أعانه عليها ووفَّقه لها...»

والخلاصـة في هذا الأصل أنَّ «العباد فاعلـون حقيقـةً، والله خالـق أفعالهـم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمصلِّي والصَّـائم، وللعباد قـدرةٌ على أعمالهـم، ولهـم إرادة، والله خالقهـم وخالق قدْرَتهم وإرادَتهم»[15].

فالعبـد لا يَخلُـقُ أعمالَـه وإن كان هو الفاعلَ لهـا، وكلُّ شـيءٍ بإذنه تعالى القدَري الكوني.

وفي هـذا ردٌّ علـى المعتزلـة الَّذيـن يقولـون إنَّ اللهَ غيرُ خالـقٍ لأفعال العباد، ولم يُرِدْهـا ولم يشـأْها، بـل هـم الَّذيـن أرادوهـا وأحدَثوهـا، فهـي مَخلُوقَةٌ لهم، وقد سبق بيانُ بطلان هذا.

جاء في «شـرح أصـول الاعتقاد» (4/740): «أنَّ أعرابيًـا جاء عَمـرَو بنَ عُبَيْد فقـال له: إنَّ ناقتي سُـرقَتْ فـادعُ اللهَ أنْ يردَّهـا علـيَّ، فقـال: اللَّهـمَّ إنَّ ناقة هذا الفقير سُـرِقَت ولم تُـرِدْ سـرقتَها، اللَّهمَّ اردُدْها عليه، فقال الأعرابي: يا شيخ الآن ذَهَبَتْ ناقتي وآيسْـتُ منهـا، قال: وكيف؟ قال: لأنَّه إذا أراد أن لا تُسرَقَ فسُرِقَت، لم آمَـنْ أن يُريدَ رجوعَهـا فلا تَرجِع، ونهض من عنده مُنصَرِفا».

○ للعبد مشيئةٌ شرعًا ونظرًا:

☐ شرعًـا: قـال تعـالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29]، وقـال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152]، وأعمالـه تُنسَـبُ إليـه، قـال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، وقال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [سورة فصلت].

(14) انظر «مجموع الفتاوى» (475/8)، «شرح الطَّحاوية» (79/1)، «شرح الواسطيَّة» لابن عثيمين (222/1).

(15) قاله ابن تيمية في «الواسطيَّة».

□ نظرًا: كلُّ عاقلٍ يُدرِكُ أنَّ له مشيئةً وإرادةً واختيارًا، يفعل ويترك، يختار ويُفضِّل، ويُفرِّق أيضًا بين أفعاله الاختياريَّة كالكلام والأخذ والعطاء، وبين أفعاله غير الاختياريَّة كالارتعاش[16].

⌑ ⌑ ⌑

■ الإيمان بالقدر لا يُنافي اتِّخاذَ الأسباب:

الإيمان بالقدر لا يُنافي اتِّخاذَ الأسبابِ والسَّعيَ والاجتهادَ، وكلُّ ذلك من قدرِ الله ﷻ.

فالَّذي يتعلَّمُ القرآنَ ويتَّبِعُ ما أنزلَ اللهُ يَهديه صِراطَه المستقيمَ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ المَائدَة]، وقد جعل اللهُ الأعمالَ الصَّالحةَ سببًا لدخول الجنَّة، فقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سُورَةُ النَّحل].

وفي الحديث السَّابق: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾».

فأَمَرَهم ﷺ باتِّخاذ الأسباب المُوصِلَة إلى السَّعادة والجنَّة، وهي الإيمانُ والتَّقوى والعمَلُ الصَّالحُ والنَّفقةُ في سبيل الله، كما ذكرت الآية الَّتي استَشهَدَ بها ﷺ.

ومَن تَرَكَ العملَ اعتمادًا على الكتابِ السَّابقِ فهو شقيٌّ مَحرُومٌ مَخذُولٌ، قال شيخُ الإسلام في «المجموع» (8/284-285): «وإذا تَرَكَ العبدُ ما أُمِرَ به مُتَّكلاً على الكتابِ كان ذلك من المكتوب المقدور الَّذي يصيرُ به شقيًّا، وكان قوله ذلكَ بمنزلة منْ يقول: أنا لا آكُلُ ولا أشْرب، فإن كان الله قضى بالشِّبَع والرِّيِّ حصل وإلاَّ لم يحصُل، أو يقولُ لا أُجامعُ امرأتي فإن كان الله قضى لي بولد فإنَّه يكون.

وكذلك من غلط فترك الدُّعاءَ أو تَركَ الاستعانةَ والتَّوكُّلَ ظانًّا أنَّ ذلك من مقامات الخاصَّة ناظرًا إلى القدر، فكلُّ هؤلاء جاهلون ضالُّون».

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم (2664).

فأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله، ونهى عن العجز الَّذي هو الاتِّكالُ على القدر، ثمَّ إذا أصابه شيءٌ بعد ذلك فلا ييأس على ما فاته بل ينظر إلى القدر ويسلِّمِ الأمرَ لله، قال بعض العقلاء: الأمورُ أمران أمرٌ فيه حيلةٌ وأمرٌ لا حيلة فيه، فما فيه حيلةٌ لا يعجزُ عنه وما لا حيلة فيه لا يجْزعُ منه[17].

ولمَّا وَقَعَ الطَّاعون بأرض الشَّام، استشار عُمَرُ ﵁ أصحابَه في الدُّخول أو الرُّجوع، فاختلفت أقوالُهم، ثمَّ استقرَّ قولُه على الرُّجوع، فقال له أبو عُبَيْدَةَ ابنُ الجرَّاح ﵁: «أفرارًا من قدر الله؟» فقال عمر: «لو غيرُكَ قالها يا أبا عُبَيْدَةَ، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدَرِ الله، أرأيتَ لو كان لك إبلٌ هبطَتْ واديًا له عُدْوَتَان إحداهما خَصِبَةٌ والأخرى جَدْبَةٌ، أليس إنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ الله وإن رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رعيتها بقدرِ الله؟»، ثمَّ لمَّا جاء عبد الرَّحمن بنُ عوف ﵁ فقال: «إنَّ عندي في هذا علمًا، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ - يعني الطَّاعون - بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وأَنْتُمْ بها فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»، فحمِدَ الله عمرُ، ثمَّ انصرف، رواه البخاري (5729) ومسلم (2219).

⌑ ⌑ ⌑

■ أصلُ هذا الباب وأساسُه التَّسليمُ والانقياد:

قال ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا» رواه الطَّبراني في «الكبير» (10/ 198)، وقوَّاه الألباني في «الصَّحيحة» (1/ 42) بشواهده.

والمقصودُ النَّهيُ عن الخوض في القدر بغير علم، واجتنابُ التَّعمُّق والبحث فيه بالعقل، وتركُ الأسئلة الاعتراضيَّة الَّتي تَكثُرُ في هذا الباب، والحذَرُ من المُشاقِّينَ للسُّنَّة والكتاب.

وقال الطَّحاوي في «عقيدته»: «وأصلُ القدَر سرُّ الله تعالى في خَلقه، لم يَطَّلِعْ على ذلك ملَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَل، والتَّعمُّقُ والنَّظرُ في ذلك ذريعةُ الخذلان وسُلَّمُ الحرمان ودرجةُ الطُّغيان، فالحذرَ كلَّ الحذرِ من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسةً، فإنَّ الله تعالى طَوى علمَ القدَر عن أنامه ونهاهم عن مَرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبيَاء]، فمن سأل: لم فَعَلَ؟ فقد ردَّ حُكمَ الكتاب، ومَن ردَّ حُكمَ الكتابِ كان من الكافرين».

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبيِّه مُحمَّدٍ وآله وصَحبه وإخوانه أجمعين.

---

(16) انظر «شرح أصول الإيمان» لابن عثيمين (ص54).

(17) «مجموع الفتاوى» (8/ 285).

آراء الفقهاء في كفارة مَن أكل عمدا في رمضان

د.رضا بوشامة
أستاذ الحديث بكلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الجزائر

إنَّ من الأفعالِ المُنكرةِ الَّتي يقع فيها بعضُ المسلمين في شهرِ الله المُعظَّم شهرِ الصِّيام والعبادة: الفطرَ عمدًا بالأكلِ والشُّربِ؛ شهوةً ومَلذَّةً، وانتهاكًا لحرمة هذا الشَّهر، لغلبة الهوى والشَّهوة، خاصَّةً في الأيَّام الشَّديدةِ الحرِّ.

ولجهل المسلمين بدينهم يَظنُّ كثيرٌ منهم أنَّ الحُكمَ الَّذي لا خلافَ فيه هو وجوبُ الكفَّارة، ويُشنِّعون على منْ لا يقول بذلك بل ويتَّهمونه بفَتحِ بابِ الفطْرِ على الفُسَّاقِ وانتهاكِ حُرمةِ الشَّهرِ، وهو جاهلٌ أو مُتجاهلٌ أنَّ هذا القولَ مُعتَبرٌ قال به أئمَّةٌ كبارٌ من أئمَّة الإسلام، ولم يفتحوا بذلك بابَ انتهاك الصِّيام؛ لأنَّ قولَهم أَشدُّ وأَعظَمُ من قولِ مَنْ قال بالكفَّارة كما سيأتي بيانُه، ولهذا السَّببِ أَردتُ تحريرَ المسألةِ وذكرَ مآخذِ العُلماءِ في أقوالِهم واختيَاراتهم ببَسطِ أدلَّتِهم الَّتي استَنَدُوا إليها.

⌑ ⌑ ⌑

قال ابنُ المُنذِر: «واختلفوا فيما يَجِبُ على مَنْ أَكَلَ أو شَرِبَ في نهارِ شَهرِ رمضان عامدًا.

فقال سعيدُ بنُ جُبَير، والنَّخَعي، وابنُ سِيرين، وحمَّادُ بنُ أبي سليمان، والشَّافعي، وأحمد: عليه القضاءُ وليس عليه الكفَّارةُ.

وقال الزُّهري، ومالكٌ، والثَّوري، والأَوزاعي، وإسحاق، وأبو ثور، وأصحابُ الرَّأي: عليه ما على المُجَامِع من الكفَّارة، ورُوِّينَا ذلك عن عطاء، والحسن.

وقال سعيد بنُ المُسيِّب: عليه صومُ شَهرٍ.

وقد رُوِّينَا عن عطاء قولاً رابعًا وهو أنَّ عليه تحريرَ رقبة، فإن لم يَجِدْ فبَدَنَة، أو بقرة، أو عشرين صاعًا من طعام يُطعِمُهُ المساكينَ، فيمن أفطر يومًا من رمضان من غير علَّة.

وفيه قولٌ خامس: وهو أنَّ عليه أن يَصُومَ اثْنَتَيْ عشر شهرًا؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: 36]، هذا قولُ ربيعة ابنِ أبي عبدِ الرَّحمن، وهذه حجَّةٌ[1].

وقد رُوِّينَا عن النَّخَعي أنَّه قال: عليه صومُ ثلاثة آلافِ يَوْم.

ورُوِّينَا عن ابنِ عبَّاس أنَّ عليه عِتقَ رقبة أو صومَ شَهرٍ أو إطعامَ ثلاثين مسكينًا.

ورُوِّينَا عن عليِّ بن أبي طالب وعبدِ الله أنَّهما قالا: لا يَقضِه أبدًا وإن صام الدَّهرَ كلَّه.

قال أبو بكر: بالقول الأَوَّلِ أقول»[2].

⌑ ⌑ ⌑

فمن هذا النص يتبيَّن أنَّ العلماءَ اختلفوا في حكم مَن أفطرَ في نهار رمضان بأكلٍ أو شربٍ طَائِعًا عَامدًا، بغَيرِ خَطأٍ وَلاَ إكراهٍ وَلاَ نسيَانٍ على عدَّة أقوال، وسأقتصر على قولين اثنين؛ لأنَّهما أشهر المذاهب في المسألة، وعند ذكر أدلَّة كلِّ قول أذكر ما استدل به كلُّ فريق دون تحديد مَن استدل بالدَّليل الخاص، فأقول وبالله التوفيق والسداد:

⌑ ⌑ ⌑

---

(1) كذا في المطبوع، ولعله حجَّته.

(2) «الإشراف على مذاهب العلماء» (3/ 127).



■ **القول الأوَّل:**

أنَّ عليه الكفَّارةَ والقضاءَ، وهو قولُ الحنفيَّةِ والمالكيَّة[3].

وشَـرْطُ الحنفيَّة: أن يتناول ما يُتَغذَّى به عادةً وما يُتَداوى به لإصلاح البدن.

قال السَّرخسي: «لأنَّ الكفَّارَةَ مشروعةٌ للزَّجر، والطِّبَاعُ السَّليمةُ تدعُو إلى تناوُلِ مـا يُتغـذَّى به وما يُتـداوَى به لِمَا فيه من إصلاح البـدن فتَقَـعُ الحاجَةُ إلى شـرعِ الزَّاجرِ فيه، ولا تدعُو الطِّبَاعُ السَّليمَةُ إلى تنَـاوُلِ مـا لا يُتَغذَّى به ولا يُتـداوى به فلا حاجَةَ لشَرعِ الزَّاجر فيه»[4].

■ **القول الثَّاني:**

أنَّ المُفطرَ بغيـر الجماع عمدًا يأثم، وعليه التَّوبةُ والقضاءُ دونَ الكفَّارة. وهو قولُ الشَّافعيَّةِ والحنابلة[5].

(3) انظر: «التَّلقين» (1/ 189، 190)، «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» للقاضي عبد الوهَّاب (1/ 433)، «الذَّخيرة» للقرافي (2/518)، «التَّاج والإكليل» (3/ 361)، «مواهب الجليل» (3/ 362).

(4) «المبسوط» (3/ 139)، وانظر: «بدائع الصَّنائع» (2/ 98).

(5) انظر لقول الشَّافعيَّة: «الأمّ» (3/ 252)، «المجموع شرح المُهذَّب» (6/ 358)، «مُغني المُحتاج» (1/ 648)، «التَّنبيه» للشِّيرازي (ص66)، «نهاية المطلب» (4/ 36).
ولقول الحنابلة: «الهداية» للكلوذاني (ص158)، «الكافي» (2/ 246)، و«المغني» (4/ 365) لابن قُدامَة، «شرح العمدة - كتاب الصيام» لابن تيمية (ص272)، «الشَّرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين (6/ 410).

⌑ **أدلَّةُ القول الأوَّل:**

1 - مـا رُوِيَ عـن النَّبـيِّ ﷺ: «مَـنْ أَفْطَـرَ فِي رَمَضَـانَ مُتَعَمِّدًا فعَلَيْـهِ ما عَلَى المُظاهِر».

وجْـهُ الاسـتدلال: أنَّ المُظاهِـرَ عليـه الكفَّارةُ بنصِّ الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ﴾ [سُورَةُ المُجَادَلَةِ]، فكـذا علـى المُفطرِ المُتعمِّد بنصِّ الحديث.

2 - حديث أبي هريرة:

في روايـة مالك عن ابنِ شـهاب، عَن حُمَيـد ابـنِ عبد الرَّحمن بنِ عَـوف، عن أبي هُريرة: «أنَّ رجُلاً أفطَر في رمضَـانَ، فأمَرَه رسولُ الله ﷺ أن يُكفِّرَ بعتقِ رقبَة، أو صـيام شـهرَيْن متَتَابعَـيْن، أو إطعَـامِ ستِّين مسكينًا...» الحديث[6].

وجهُ الاستدلال منه:

أ - أنَّ الكفَّـارةَ وَجَبَـتْ علـى الرَّجُـلِ؛ لأنَّه أفسَـدَ صَـومَ رَمَضَـانَ من غيرِ عُذرٍ ولا سَـفَرٍ، والأكلُ والشُّـربُ إفسَادٌ لصَومِ رَمَضَـانَ مُتعمِّـدًا من غير عُذرٍ ولا سـفرٍ فكَان إيجابُ الكَفَّارَةِ بنصِّ الحديث.

ب - أنَّ إفسـادَ صَـوم رمضـان ذنـبٌ، ورفعُ الذَّنبِ واجبٌ، والكفَّارةُ تَصلُح رافعةً لـه لأنَّهـا حسـنَةٌ، والأعمال الصَّـالحَاتُ رافعـةٌ للسَّـيِّئات، فمتـى وَرَدَ الشَّـرعُ في ذنبٍ خاصٍّ بإيجابِ رافعٍ خاصٍّ، ووُجد مثل ذلك الذَّنبِ في موضـعٍ آخر كان ذلك إيجابًا لذلـك الرَّافع فيـه، ويكون الحكمُ فيه ثابتًا بالنّصِّ لا بالتَّعليل، والقِياس.

جـ - علـى روايـة مالـك جـاء بلفظ: «أفطَـرَ» وهو يَتَنَـاوَلُ المَأكُولَ وَغَـيرَهُ، وَلَم يُبَيِّن السَّبَبَ المُفطرَ، وَلَم يسأَلْهُ عَمَّا أفطرَ به فدَلَّ على أَنَّ الحُكمَ لا يَختلف.

3 - مـا رُوِيَ عن ابـن عمر رضي الله عنهما قال: «جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي أفطرتُ يومًا من رمضـان؟ قال: «من غَـيرِ عُذرٍ ولا سَـفرٍ؟» قال: نعم، قال: «بِئْسَ مَا صَـنَعْتَ»، قال: فما تأمُرُني؟ قال: «أَعْتِقْ رَقَبَةً».

ووَجهُ الاستدلالِ كسَـابقه، حيث إنَّهُ سَـأَلَهُ عَن حاله بالمرضِ والسَّفَر لاختلاف حُكـم الحَـال؛ وَلَم يَسـأَلْهُ عمَّـا أفطرَ به، فَدلَّ عَلَى أَنَّ الحُكمَ لا يَختَلِفُ، سـواء كان بالجِمَاعِ أو الأكلِ والشُّرب.

4 - القيـاسُ علـى المُوَاقـع في نهـار رمضـان؛ لأنَّ الكفَّارةَ وَجَبـت للزَّجرِ عن إفسَادِ صَومِ رمَضَـانَ صيانةً له في الوقت الشَّـرِيف، فهي تصلُـح زاجرةً، والحاجةُ مَسَّـت إلى الزَّاجـر، لِوُجُـودِ الدَّاعـي الطَّبيعيِّ إلى الأكلِ والشُّرب والجِمَاع، وهو شَـهوَةُ الأكلِ والشُّـربِ والجِمَاع، وهذا في الأَكلِ وَالشُّـربِ أَكثَرُ، وَشَـهوَةُ البَطنِ أَشَدُّ وهو يُفضي إلى الهلاَك، ولهذا رُخِّصَ فيه في المُحرَّمَـات عندَ الضَّـرُورَة لِئـلَّا يَهلكَ بخلاَفِ الفَرج، فَكَانَت الحَاجَةُ إلى الزَّجرِ عَن الأَكلِ، وَالشُّـربِ أَكثَرَ، فشَرعُ الزَّاجرِ

(6) «الموطأ» (815).

في الأكل والشُّرب من باب أولى، فالكفَّارةُ زاجِرَةٌ عن المعاوَدَة وماحيةٌ للسَّيِّئة، وجابِرَةٌ لما دَخلَ من النَّقص على العبادة، وهذا يَستَوي فيه الأكل والوَطء.

ثمَّ إنَّ الأكلَ ممَّا تدعو إليه الطِّباعُ وتَشتَهيه النُّفوسُ كالجمَاع، وما كان من المُحرَّمات تَشتَهيه النُّفوسُ فلا بدَّ له من زَاجر شَرعيٍّ، والزَّواجر إمَّا حُدودٌ وإمَّا كفَّارَاتٌ، فلمَّا لم يَكُنْ في الأكل في رَمضَان عمدًا حدٌّ فلا بدَّ فيه من الكفَّارة.

أيضًا: فإنَّ الكَفَّارَةَ رُتِّبَتْ عَقِبَ وَصف مُناسِب وَهُوَ إفسادُ الصَّوم بالجِمَاع، ولا يقتصر عليه، لأنَّ وَصفَ الإفسَاد الَّذي هُوَ في الجمَاع يكون في غَيره كالأكل والشُّرب، ولا يُقتَصَرُ عليه، والتَّعليلُ بالعلَّة العَامَّة أَولَى مِنَ الخَاصَّة لكَثرَة فُرُوعهَا، فالفطر في حديث أبي هريرة وقع بجماع لكنَّ الحكمَ ثَبتَ لكَونه مُفطرًا لا مُجامعًا، وتَرتيبُ الحُكم على الوصف المناسب يُبيِّنُ أنَّه علَّة.

⌑ أدلَّةُ المذهب الثَّاني:

لا تجبُ الكفَّارةُ على مَنْ أكل أو شرب في نهار رمضان عمدًا؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ الكفَّارة إلاَّ فيما ورد به الشَّرعُ، وقد وَرَد الشَّرعُ بإيجاب الكفَّارة في الجماع، وما سِواه ليس في معناه؛ لأنَّ الجماعَ أَغلَظُ.

ووجوب الكفَّارة في الجماع ثبت مَعدولاً به عن القياس لأنَّ وجوبَها لرَفع الذَّنب، والتَّوبةُ كافيةٌ لرفع الذَّنب، ولأنَّ الكفَّارَةَ من باب المَقَادير، والقياسُ لا يَهتَدي إلى تَعيين المَقَادير، وَإنَّمَا عُرفَ وُجُوبُهَا بالنَّصِّ، وَالنَّصُّ وَرَدَ في الجِمَاع فقط فَيُقتَصَرُ عَلَى مَورد النَّصِّ.

⌑ ⌑ ⌑

⌑ مناقشة ما استدلَّ به أصحاب القَول الأوَّل:

1 ـ أوردوا حديث: «مَنْ أَفْطَرَ فِي رَمَضَانَ مُتَعَمِّدًا فَعَلَيْهِ مَا عَلَى المُظَاهِر».

وهذا الحديثُ لا يُعرَفُ له إسنادٌ ولا أَصلٌ بهذا اللَّفظ، وأَقرَبُ ألفاظه:

ما رواه الدَّارقطني في «السُّنن» (2306، 2307) قال: حدَّثنا أبو سهل ابن زياد من أصله ثنا إسماعيل بن إسحاق، ثنا يحيى بن الحمَّاني، ثنا هُشيم، عن إسماعيل بن سالم، عن مجاهد، عن أبي هريرة: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر الَّذي أفطر يومًا من رمضان بكفَّارة الظِّهار»، قال: وثنا هُشيم، ثنا ليثٌ، عن مجاهد، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ مثلَه.

قال الدَّارقطني: «كذا في أصل أبي سهل، والمحفوظ: عن هُشيم، عن إسماعيل بن سالم، عن مجاهد مرسلاً، عن النَّبيِّ ﷺ، وعن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة مثله، وليثٌ ليس بالقويِّ».

قلتُ: وفيه يحيى بنُ عبد الحميد الحمَّاني متَّهمٌ بسرقة الحديث.

والرِّوايةُ المُرسَلَةُ أَخرَجها البيهقي في «السُّنن الكبرى» (8148) من طريق أبي جعفر مُحمَّد بن عَمرو الرَّزَّاز، عن إسماعيل بن إسحاق به.

والحديث ضعَّفه غيرُ واحد[7].

وعلى فَرض صحَّة الرِّواية إلى هُشيم، فقد خولف:

رواه جريرُ بن عبد الحميد، وموسى ابنُ أَعيَن، وعبد الوارث بنُ سعيد، وابن عُليَّة أربعتهم عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة مُفسَّرًا في قصَّة المُوَاقِع على أهله في شهر رمضان[8].

ومثله حديث الدَّارقطني (2308) قال: ثنا عليُّ بنُ عبد الله بن مُبشِّر، ثنا أحمد بن سنان، ثنا يزيد بن هارون، ثنا أبو معشر، عن محمَّد بن كعب القرظيِّ، عن أبي هريرة: «أنَّ رجلاً أكَلَ في رمضان، فأمره النَّبيُّ ﷺ أن يَعتق رقبةً، أو يَصوم شهرَيْن، أو يُطعمَ ستِّين مسكينًا».

قال الدَّارَقُطني: «أبو معشر هو نجيحٌ وليس بالقويِّ».

وعلى فرض صحَّته فيُحمَلُ على المُواقع في نَهَار رَمضَان؛ لأنَّ القصَّةَ واحدةٌ كما فصَّلها الرُّواةُ عن الزُّهري، عن حُمَيْد ابن عبد الرَّحمن، عن أبي هريرة.

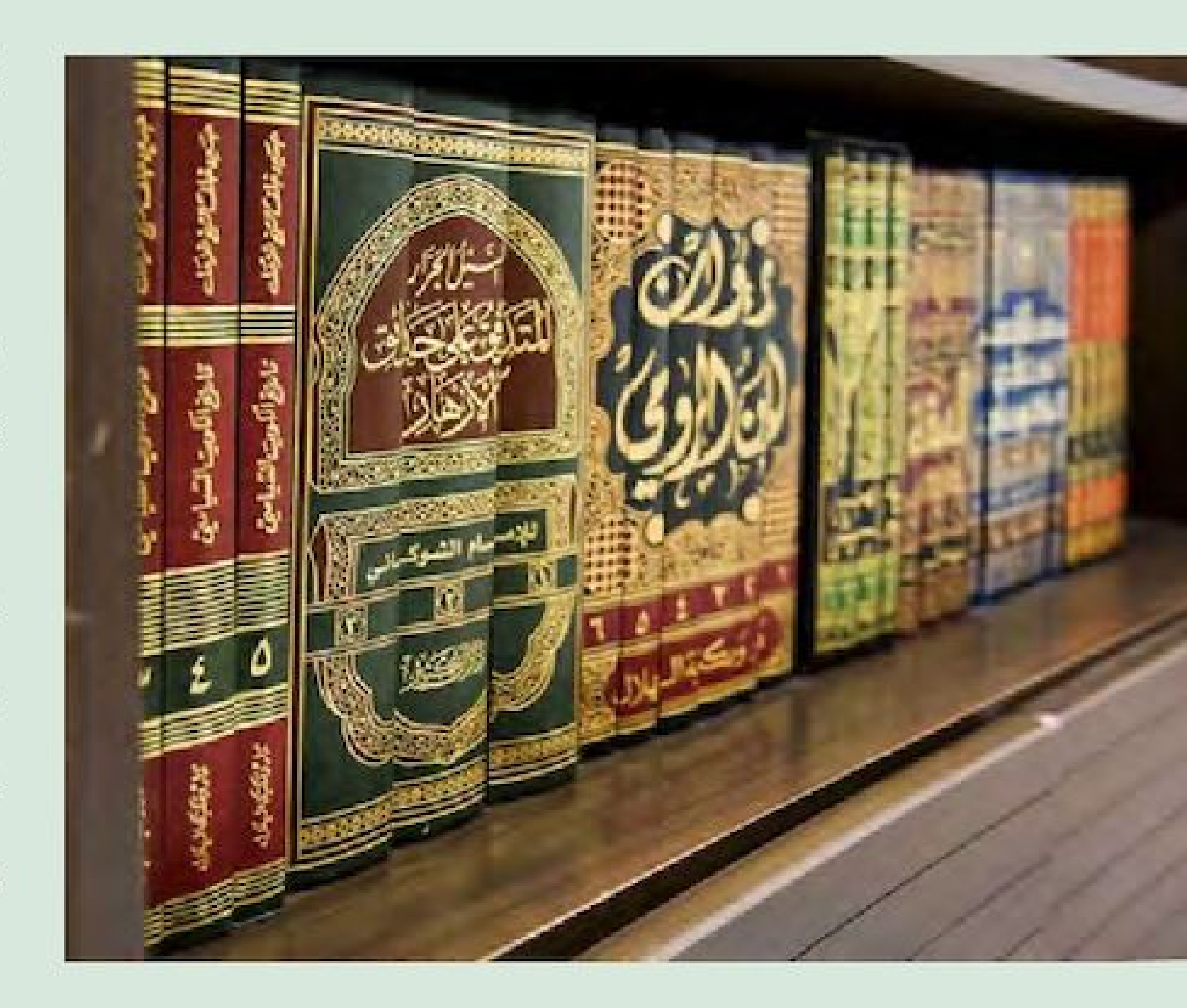
قال ابنُ تيمية: «فأمرَه النَّبيُّ ﷺ بالكفَّارة عَقيب ذلك، فهذا مُفسَّرٌ في أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما أَمَرَه بالكفَّارة لأجل الجماع، فمَنْ قال: «إنَّ رجلاً أفطرَ في رمضان فأمرَه النَّبيُّ ﷺ...»؛ فقد صَدَق، وإفطارُه كان بجمَاع، وترتيبُ الحُكم على الوَصف ليس من كلام النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما المحدِّث يقول: إنَّه أفطر فأمر بكذا، وقد عُلم أنَّ الإفطار كان بالجماع؛ فلو صرَّح المحدِّثُ بعد ذلك، وقال: إنَّما أَمرَه بالكفَّارة لمُجرَّد الإفطار لم يَجبْ قبولُ ذلك منه؛ لأنَّه رأيٌ واجتهادٌ؛ فكيف إذا دلَّ عليه كلامُه، مع إمكان أنَّه لم يقصد بذلك؟!»[9].

أمَّا حديثُ أبي هريرة من رواية مالك ومَنْ تابعه عن الزُّهري، عن حُمَيْد، عن أبي هريرة بلفظ: «أنَّ رجلاً أفطر» فهي مَرويَّةٌ بالمعنى، وأكثر الرُّواة عن الزُّهري يَروُونَه بلفظ الجماع، والقصَّةُ واحدةٌ

(7) انظر: «المجموع» للنووي (6/ 361)، «كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجوزي (3/ 393)، «تنقيح التحقيق» لابن عبد الهادي (3/ 228).

(8) انظر: «علل الدَّارقُطني» (10/ 246، 247)، «السُّنن الكبرى» للبيهقي (8/ 500)، «التَّمهيد» لابن عبد البَرِّ (21/ 11).

(9) «شرح العمدة ـ كتاب الصِّيام» (ص277 ـ 278).



فيُحمَلُ المُطلَقُ على المُقيَّد.

وقد أَوْرَد الدَّارقُطني روايةَ مالك ومَن تابَعَه، ورواية من خالفه وأطال في سَرْدِها، وقال: «ورواه عن الزُّهري أَكثَرُ منهم عَدَدًا بهذا الإسناد، وقالوا فيه: إنَّ فِطرَه كان بجماع ....»(10).

وأمَّا حديثُ ابن عمر رضي الله عنهما قال: «جاء رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي أفطرت يومًا من رمضان ...» الحديث.

فرواه أبو يعلى في «المسند» (5725)، والطَّبراني في «الكبير» (13/164)، و«الأوسط» (8124).

وقال الطَّبراني: «لم يَرْوِ هذا الحديث عن حبيبٍ إلاَّ هَارُونُ، تفرَّد به: الصَّبَّاحُ ابن محَارِب».

والحديثُ أعلَّه أبو حاتم وأبو زرعة والدَّارقطني بالإرسال.

قال ابنُ أبي حاتم: «سألتُ أبي وأبا زُرعةَ عن حديثِ رواهُ الصَّبَّاح بنُ مُحارِب، عن هارونَ بن عَنترَة، عن حبيب ابن أَبي ثابت، عن ابن عمر؛ الحديث؟

قالا: هذا خطأٌ؛ إنَّما هو: حَبيب، عن طلق، عن سعيد ابن المسيِّب، عن النَّبيِّ ﷺ مرسَل»(11).

وقال الدَّارقطني: «قد اختُلفَ فيه على حبيب ابن أبي ثابت، عَنِ ابنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، فرواه هارون بن عنترة، عَنْ حَبِيبِ بنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنِ ابنِ عمر، ووهم فيه.

والصَّواب: عن حبيب بنِ أَبي ثَابت، عَن طَلقِ بنِ حَبِيبٍ، عن سعيد بن المُسَيِّب مُرسَلاً.

وقال مهران بن أبي عمر: عن الثَّوري، عن حبيب، عَنِ ابنِ المُسَيِّب، عَن أَبِي هُرَيرَةَ.

وَالصَّحيحُ مُرسلاً»(12).

أمَّا قياسُهم على المُواقِع، فقد رَدَّه أصحابُ القَولِ الثَّاني بما يلي:

. أنَّ الصَّحابةَ لم يُلحِقُوا سائرَ المُفطِّرَات بالجِماع؛ فكان إجماعًا من الصَّحابة.

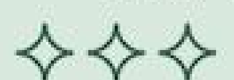
. إلحاقُ الكفَّارة بالأكل يحتاج إلى دليل، والقياسُ ليس ظاهرًا؛ لجواز أن يكون الجماعُ قد تضمَّن وصفًا فارَق به غيرَه.

. أنَّ المُوجِبَ للكفَّارة ليس مجرَّدَ الفِطْر، فلو وجب لأجل الإفطار؛ لاستوى فيه جميعُ المُفطِّرَات؛ كالقَيْء، والحِجَامَة لمن يقول بأنها تُفطِّر، فإنَّ تخصيصَ بَعضِها دون بَعض نوعُ تشريع يحتاج إلى دلالة الشَّرع.

. أنَّ الجِماعَ يفارق غيرَه بقوَّة دَاعيه وشدَّة باعثِه؛ فإنَّه إذا هاجت شهوتُه؛ لم يَكَدْ يَزَعُها وازعُ العقل ولم يَمْنَعْها حارسُ الدِّين.

. أنَّ هذه الكفَّارةَ لو كانت واجبةً بالفطر؛ لكان مَن أبيح له الفطرُ من غير قضاء؛ تجب عليه هذه الكفَّارة؛ كالشَّيخ الكبير والعجوزِ الكبيرة.

. أمَّا ترتيبُ الحُكم على الوصف المناسب وهو إفساد الصَّوم بالإفطار، فليس من كلام النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما الرَّاوي هو القائل: «أفطر فأمر بكذا»، وقد عُلم أنَّ الإفطارَ كان بالجماع كما تقدَّم في كلام ابن تيمية رحمه الله.



وخلاصةُ البحث كما قال ابنُ عبد البرِّ المالكي رحمه الله بعد أن ذكر أقوالاً مُتعدِّدةً في المسألة: «إنَّ أقاويلَ التَّابعين بالحجاز والعراق في هذا الباب كما ترى لا وجه لها عند أهل الفقه والنَّظر وجماعة أهلِ الأثر، ولا دليلَ عليها ولا يُلتَفَتُ إليها لمُخَالَفَتِها للسُّنَّة في ذلك، وإنَّما في المسألة قولان؛ أحدُهما قولُ مالك ومَنْ تَابَعه، والحُجَّةُ لهم من جهة الأَثَرِ حديثُ ابن شهاب هذا، ومن جهة النَّظر أنَّ الآكلَ والشَّاربَ في القياس كالمُجامِع سواءٌ؛ لأنَّ الصَّومَ في الشَّريعة في وجه واحد شيءٌ واحدٌ، فسبيلُ نظيرِه في الحُكم سبيلُه، والنُّكتةُ الجامعةُ بينهما انتهاكُ حُرمة الشَّهر بما يُفسدُ الصَّوْمَ عمدًا، وقد تقدَّمَ أنَّ لفظَ حديث مالك في هذا الباب يَجمعُ كلَّ فطر.

والقولُ الثَّاني قولُ الشَّافعي ومَن تابَعَه، والحجَّةُ لهم أنَّ الحديثَ وَرَدَ في المُجامع أهلَه، وليس الآكلُ مثلَه، بدليل إجماعهم على أنَّ المستَقيءَ عمدًا إنَّما عليه القضاءُ، وليس عليه كفَّارةٌ، وهو مُفطِرٌ عمدًا، وكذلك مُزدَرِد الحصاة

(10) انظُرْ هذه الرِّوايات في «العلل» (10/ 223. 247)، و«السُّنن الكبرى» للبيهقي (8/ 478. 491)، وانظر كلام ابن القيم في ترجيح رواية الأكثر المصرِّحَة بذكر الجماع في «تهذيب السنن» (2/ 82 . 85)، وللحافظ ابن حجر جزء سمَّاه «نزهة الناظر والسامع في طرق حديث الصائم المجامع» مطبوع بدار البشائر الإسلامية، أورد فيه روايات هذا الحديث.

(11) «علل الحديث» (3/ 7).

(12) «العلل» (12/ 430).

عمدًا عليه القضاءُ، وهو مُفطرٌ مُتعَمِّدًا، وليس عليه كفَّارةٌ؛ لأنَّ الذِّمَّةَ بريئةٌ فلا يَثبُتُ فيها شيءٌ إلاَّ بيقين، والآكلُ عمدًا لا يُرجَمُ ولا يُجلَدُ ولا يجب عليه غسلٌ، فليس كالمُجامع، والكلامُ في هذه المسألة يطول وفيما لوَّحنا به كفايةٌ»[13].

¤ ¤ ¤

فالَّذي يَظهرُ أنَّ أقوى المذاهب قولُ منْ قالَ إنَّ المُفطرَ في نهار رمضان عَمدًا تَجبُ عليه التَّوبةُ وقضاءُ ذلك اليوم دون الكفَّارَة.

وهذا لا يَدلُّ على أنَّ هذا فيه تسهيلٌ على الفُسَّاقِ لفطرِ رَمضانَ خاصَّةً في الأيَّامِ الشَّديدةِ الحَرِّ ثمَّ قضاؤه في غيرها كما قد يَظُنُّه بعضُ الجُهَّال، ويصفون منْ قال بهذا القولِ واختاره أنَّه فتح بابًا لهتك شهر رمضان، وبيانه فيما يلي:

1. أنَّ هذا قولُ كثيرٍ منْ أهل العلم، من الصَّحابة والتَّابعين والفُقَهاء، وقامت عليه أدلَّةٌ شرعيَّةٌ، فلا ينبغي أن يُهدَرَ.

2. أنَّ مَنْ قال بعدم الكفَّارة أَوْجَبَ التَّوبةَ على مُقتَرف هذا الذَّنب والكبيرة العظيمة، ولا شكَّ أنَّ أمرَ التَّوبة أشدُّ من مُجرَّدِ الكفَّارة، فالكفَّارَاتُ زواجرُ وجَوابرُ، وقد رتَّب اللهُ تعالى على بعضِ المخالفات كفَّارات، فإن أتى بها العبدُ فقد أتى بما أوجَبَه اللهُ عليه، فتَجبرُ الكفَّارةُ تلك المعصيةَ.

وأمَّا الذُّنوبُ الَّتي لم يُرتِّبْ عليها كفَّاراتٍ وأعظمُها الشِّركُ بالله وكثير من الموبقات والكبائر، فقد يغفرها الله وقد يعذِّب عليها، فالأمر بالتَّوبة والنَّدم أشدُّ عند الله؛ إذ لا يَعلَمُ العبدُ هل تُقبَلُ توبتُه أم لا، فللتَّوبةِ شروطٌ وموانعُ، وأساسُها الإخلاصُ والنَّدمُ، وليست كلمةً يَتلفَّظُ بها العبدُ من غير عَقد نيَّة، فالمُفطرُ على خَطر عظيمٍ إن لم تُقبَلْ توبتُه ولم يُحسنْ في عمله.

روى ابن خزيمة في «صحيحه» (1986)، وابن حبان في «التقاسيم والأنواع» (3019) عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهلي قَالَ: سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَا أَنَا نَائمٌ إذْ أَتَاني رَجُلَان، فَأَخَذَا بضَبْعَيَّ، فَأَتَيَا بي جَبَلًا وَعْرًا، فَقَالَا: اصْعَدْ، فَقُلْتُ: إنِّي لا أُطيقُهُ، فَقَالا: إنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ، فَصَعدْتُ حَتَّى إذَا كُنْتُ في سَوَاء الْجَبَل إذَا بأَصْوَاتٍ شَديدَةٍ، قُلْتُ: مَا هَذه الْأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا عُوَاءُ أَهْل النَّار، ثُمَّ انْطُلقَ بي، فَإذَا أَنَا بقَوْمٍ مُعَلَّقينَ بعَرَاقيبهمْ، مُشَقَّقَةٌ أَشْدَاقُهُمْ، تَسيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاء؟ قَالَ: هَؤُلَاء الَّذينَ يُفْطرُونَ قَبْلَ تَحلَّة صَوْمهمْ ... » الحديث.

والحديث ذكره الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (3951) وعلق عليه بقوله: «هذه عقوبةُ مَن صام ثم أفطر عَمداً قبل حُلول وقت الإفطار، فكيف يكونُ حالُ مَن لا يَصوم أصلاً؟! نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة».

وهذا المعنى أشار إليه كثيرٌ من السَّلف أنَّ المفطر عمدًا بأكل أو شرب عليه التوبة دون الكفَّارة؛ إذ هي أشدُّ.

روى البيهقي في «السُّنن الكبرى» (8145) بسند فيه ضعفٌ عن ابن مسعود قال: «مَن أفطرَ يَومًا من رمَضانَ من غير علَّة لَمْ يُجْزه صيامُ الدَّهر حَتَّى يَلْقَى اللهَ عز وجل، فإن شاءَ غفرَ لهُ، وإنْ شاءَ عَذَّبه».

وروى ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّف» (9879) - واللفظ له - والبيهقي في السنن الصغرى» (1351) عن سعيد بن جُبَير في رَجُل أَفْطرَ يومًا من رمضانَ مُتَعمِّدًا، قال: «يَسْتَغْفرُ اللهَ من ذَلكَ، ويَتُوبُ إليه، وَيَقْضي يَوْمًا مَكَانَهُ».

وروى سعيدُ بنُ منصور كما في «فتح الباري» لابن حَجر (4/162) حدَّثنا هُشيم، حدَّثنا إسمَاعيلُ بنُ أبي خالد عن الشَّعْبيِّ في رجل أَفْطرَ يَوْمًا في رمضان عَامدًا، قال: «يصُومُ يومًا مكانه ويَسْتَغْفرُ اللهَ عز وجل».

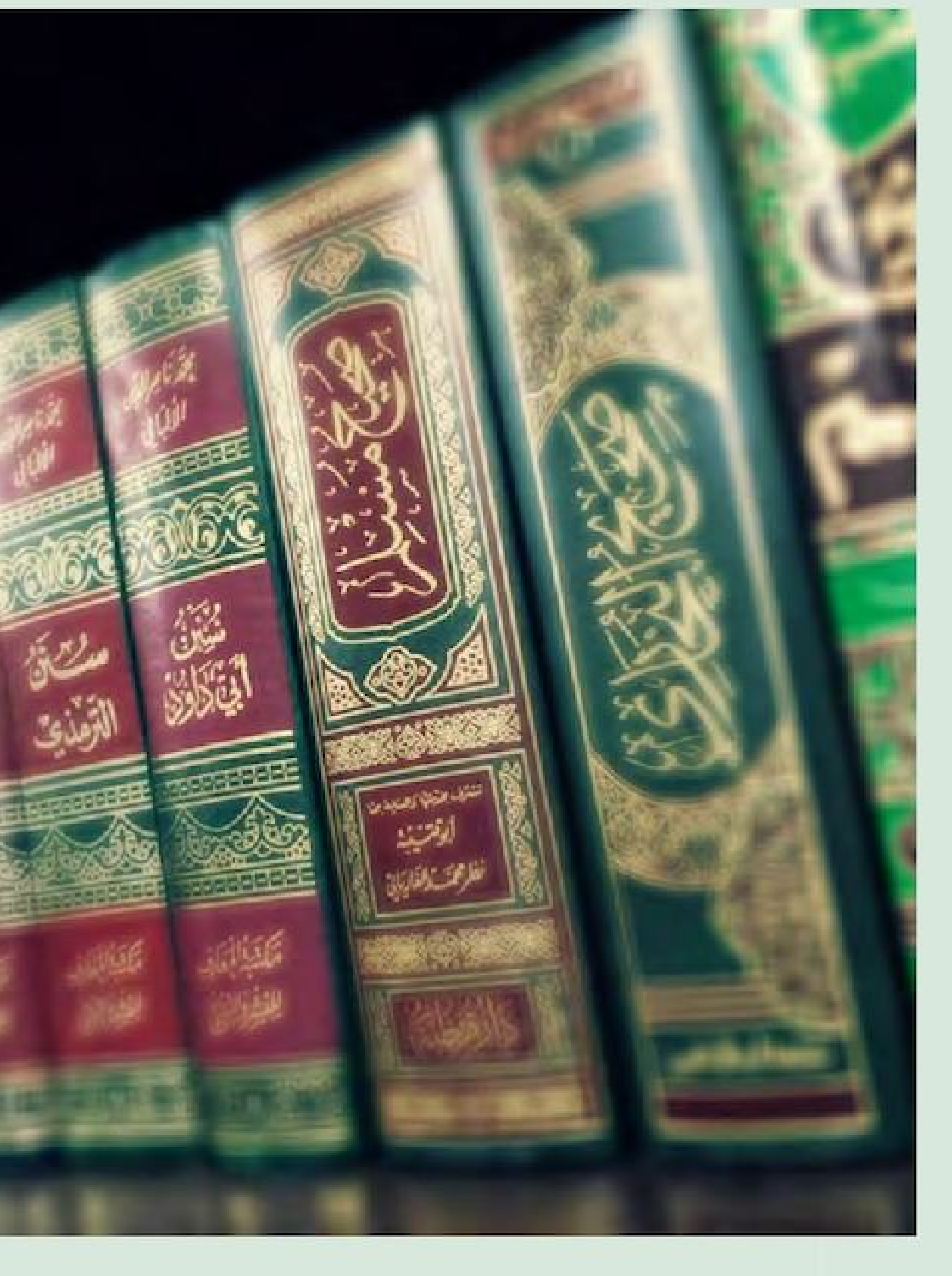
وعَنْ إبْرَاهيم النَّخعيِّ: أَنَّهُ قَالَ في الَّذي يُفْطرُ يَوْمًا منْ رَمَضَانَ مُتَعَمِّدًا: «يَسْتَغْفرُ اللَّهَ وَيَصُومُ يَوْمًا مَكَانَهُ»[14].

والآثارُ في هذا الباب كثيرةٌ، وفيما ذكرناه كفايةٌ واللهُ أعلى وأعلم.



(13) «التَّمهيد» (7/170).

(14) «الآثار» لأبي يوسف (822).





أثر المنهج السَّلفي في تحقيق الأمن وإرساء قواعده

سمير بوقرة
إمام خطيب. الجزائر العاصمة



ممَّا لا يخفى على ذي بصيرة ممّن آتاه الله علمًا رصينًا، وفهمًا سديدًا، ونظرًا صحيحًا، ويقينًا صادقًا، أنَّ شريعة الله باستقراء أدلَّتها وتتبُّع مدلولاتها، جاءت جامعةً لكلِّ قولٍ وعملٍ فيه صلاح الدِّين والدُّنيا، الَّذي به النَّجاة المثلى، وتحقيق الحياة الفضلى، والفوز بخير الأولى والأخرى.

والشَّريعة: إنَّما هي كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وما كان عليه سلف الأمَّة من الهدى المستقيم، والنَّهج القويم، في العقائد والعبادات والسُّلوك والمعاملات والسِّياسات...، إذْ كانوا أعلم الخلق بدين ربِّ العالمين بعد سيِّد النَّاس أجمعين ﷺ، الَّذين تلقَّوْا الخطابَ القرآني والنَّبوي، فسمِعوا، وفهِموا، وعمِلوا، وأحسنوا، وحفِظوا، وضبَطوا، ونقلوا، وصدقوا، فلهم الفضل العظيم علينا، إذ بهم وُصل حبلُنا بحبل الله سبحانه، وبحبل النَّبيِّ ﷺ، فلهمُ اليد العليا حقًّا وسبقًا.

فلا يُتصوَّر بعد ذلك، فِكْرٌ وفهمٌ ومنهجٌ، أصحُّ وأقوم من فهم سلف الأمَّة الأخيار، المشهود لهم بخيريَّة الفهم والمنهج، نصًّا واستنباطًا، لذا كان سبيلهم وطريقهم علمًا وفهمًا وعملاً ودعوةً... أسلم وأعلم وأحكم من كلِّ سبيل وطريق أحدثه النَّاس بعدهم، فهم الأمناء الَّذين تحقَّق بهم الأمن على الدِّين والعقيدة سلفًا، فسبيلُهم الأوحد هو طوْق النَّجاة المنجي من تغيُّر المفاهيم وتلوُّن التَّوجُّهات، واضطراب الأفكار، وانحراف الآراء والسُّلوك، الَّتي يختلُّ بها أمن الدِّين والدُّنيا، فمَن اتَّبع سبيلهم، وانتهج طريقهم على ما كانوا عليه، وُفِّق ـ بإذن الله ـ إلى مثل ما هُدُوا إليه، وزاده الله إيمانًا وأمنًا وأمانًا وثباتًا واستقامةً

وعزًّا وفخرًا.

فعن أبي موسى الأشعري قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ للسَّمَاء، فَإِذَا ذَهَبَت النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي ما يُوعَدُون، وأَصْحَابي أَمَنَةٌ لأُمَّتي فإذا ذَهَبَ أَصْحَابي أَتَى أُمَّتِي ما يُوعَدُون» رواه مسلم (2531).

⌑ ⌑ ⌑

ولهذا كان المنهج السَّلفي الرَّباني المتوارَث المبارَك خلَفًا عن سلف. واضحَ المعالم وضوح الشَّمس في ضحو النَّهار، ممّا كان له الأثر العظيم في تحقيق الأمن والأمان في حياة الأمَّة فردًا وجماعات، معالمُ عظيمةٌ وصُوًى جليَّةٌ ومناراتٌ واضحةٌ، كانت بفضل الله. سبحانه. صمام أمان للأمَّة. راع ورعيَّة.. قائمةً. جذرًا وفرعًا. على تأصيل الأمن والإيمان منهجًا ودعوةً.

⌑ ⌑ ⌑

إنَّ هذا المنهج القويم، قد ترك في نفوس أهل الإيمان والاتِّباع، الطُّمأنينة والسَّكينة والاستقرار، وجلب لها المنافع والخيرات، ودفع عنها الشُّرور والمضرَّات، وأبعد عنها الأوهام والشُّكوك والشُّبهات؛ إنْ هي لزمت ظلَّها، ودخلت حصنها، وأمسكت حبلها، وهذا ممّا لم تقدر اليوم أن تحقِّقه الكثيرُ من الدَّعوات الحزبيَّة، والمناهج الفكريَّة، والتَّنظيرات الوهميَّة الكاسدة... ولكلِّ قوم وارث! إذ كان واقعُ هذه المناهج المخالفة لدعوة الحقِّ عبر تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة نذيرَ شؤم على العباد والبلاد، واضطراب أحوال النَّاس في دينهم ودنياهم؛ لأنَّهم لم يسلكوا بها سبيلَ المؤمنين عقيدةً ومنهجًا، وسنَّةُ الله ماضيةٌ، وأنَّ ما بُني على فاسد فهو فاسد، ومآله إلى فساد، والله لا يصلح عمل المفسدين...

⌑ ⌑ ⌑

إنَّ كلَّ أمَّة تسعى لأَنْ تُحقِّق لنفسها أمنًا وسعادةً واستقرارًا وحياةً طيِّبةً كريمةً في النَّفس والمال؛ فلا يمكن أن تهنأ برغد عيش واستقرار للأوضاع والتَّنعُّم بالأرزاق والقيام بعبادة الله حقَّ القيام إلاَّ في ظلال الأمن وكنف العافية.

فالأمن في الأوطان، والمعافاة في الأبدان، والرِّزق والكفاف، من أصول حيازة الدُّنيا، دلَّ على ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ آمنًا في سِرْبه مُعَافًى في جَسَده عنْدَهُ قوتُ يَوْمه فكأَنَّما حيزَت له الدُّنْيَا بحَذَافيرهَا» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (300)، والتِّرمذي في «سننه» (2346) وابن ماجه (4141)، وأبو نعيم في «الحلية» (5/249) وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (2318) من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي.

ففقدُ الأمن فقدٌ لثُلث الحياة، والثُّلث كثير، ولمَّا كان الأمنُ ثُلثَ العيش امتنَّ الله به على قريش ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة قريش]، لكنَّ حكمة الله ﷻ اقتضت أن يكون الأمن الحقيقي والسَّعادة الحقيقيَّة والحياة الطَّيِّبة لمن اتَّبعوا وحيَه وحكَّموا شرعه، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه].

وإنَّ من أعظم مقوِّمات تحقيق الأمن في الأمَّة، هو الوقوف عند نصوص الوحيين حكمًا وامتثالاً، وعدم تقديم سلطان العقل والهوى عليهما، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحجرات]، فالتَّمسُّك بالدَّليل عصمةٌ ونجاةٌ، لا سيما عند التَّنازع والاختلاف الَّذي يدبُّ بين النَّاس فيؤول بهم إلى اختلال أمنهم واضطراب أحوالهم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النساء].

فعدم الرَّدِّ إلى الكتاب والسُّنَّة، هو اتِّباع للهوى الَّذي يهوي بصاحبه إلى مهاوي الرَّدى ويبعده عن الهدى، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة القصص]، فلو حُكِّمت وصيَّةُ رسول الله ﷺ، وذلك قوله: «تَرَكْتُ فيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بهمَا: كتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّه»[1] لما حدث هذا الانحراف والضَّلال، وذلك الغلوُّ والجفاء، ولما صار النَّاس تضطرب بهم أمواج الفتن على اختلاف سبلها وتعدُّد مسالكها، ممَّا كان مآله إلى القطيعة والبغي وفقدان نعمة الأمن، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا انقطع عن النَّاس نور النُّبوَّة وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع والفجور ووقع الشَّرُّ بينهم» «مجموع الفتاوى» (1/310).

فترك الاعتصام بنور الوحيين،

(1) أخرجه الحاكم (1/ 93)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (10/ 114)، وصحَّحه الألباني في «التَّرغيب والتَّرهيب» (40)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

والإعراض عنهما مآله الخوف والذُّعر ورفع للنِّعم الَّتي بها قوام الحياة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [سورة النحل].

⌑ ⌑ ⌑

وإنَّ من أهمِّ ركائز المنهج السَّلفي في تحقيق الأمن وإرساء قواعده:

○ البداءة بإصلاح عقائد النَّاس، والدَّعوة إلى توحيد الله سبحانه، وإخلاص العبادة له وحده، ومحاربة الشِّرك، والقضاء عليه وعلى أسبابه، واقتلاع جذوره، فلا أمنَ مرجوٌّ للنَّاس ولا استقرارَ لهم، ولا حياة مباركة لهم، إلاّ بتوحيد الله وطاعته، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [سورة النور].

فالاهتمام بالتَّوحيد علمًا وعملاً ودعوةً، وتخليص القلوب والجوارح من براثن الشِّرك والخرافات والأوهام ـ تخليةً وتحليةً ـ، هو من أعظم أسباب تحقُّق الأمن والتَّمكين في الأرض، وحصول الهداية في الدُّنيا والآخرة، إذا سَلم إيمان العبد من الظُّلم على اختلاف مراتبه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [سورة الأنعام].

فهذا هو الأمن الحقُّ الَّذي إذا وفّق الله سبحانه وتعالى أمَّةً من الأمم، هيَّأ لها أسبابه ووقاها من موانعه، فسعت لتحقيقه، حصل لها الأمن في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [سورة فصلت]، فالَّذي نجا من النَّار كمُل أمنُه بدخول الجنَّة ونعيمها وغرفاتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [سورة الحجر]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سورة سبأ].

فالأمن التَّامُّ لا يتحقَّق إلاّ بالخوف التَّامِّ من الله سبحانه وتعالى، والتَّوكُّل عليه وحده، وعدم الخوف ممَّن سواه، وهو الَّذي جادل به إبراهيم عليه السلام قومَه حينما أخافه المشركون بأصنامهم وطواغيتهم، كما قال سبحانه: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [سورة الأنعام].

وعليه، فإنَّ أمَّة التَّوحيد والاتِّباع، هي الجديرة بالفوز والظَّفر بالأمن التَّامِّ في الدَّارين، وإلاّ كان سعيها للبحث عن أمنها، ضربًا من اللّعب واللّهو وضياعًا للأوقات:

ومن طلب العلى من غير كدٍّ
أضاع العمر في طلب المحال

⌑ ⌑ ⌑

كيف وقد ناشد الكثير في هذا الزَّمن ممَّن يسعى إلى البحث عن أمن العباد واستقرار أوضاع البلاد، لكنَّه ـ وللأسف ـ لم يفهم حقيقةَ ما ينشده، ولم يقف على ركائزه الشَّرعيَّة ومقوِّماته المرعيَّة، فأخطأ طريقه، وضلَّ سبيلَه، فيهتف بأنَّ دعوةَ النَّاس إلى التَّوحيد والرُّجوع إلى دين الإسلام الصَّحيح ممَّا يفرِّق ويشتِّت الكلمة!! فوضع بذلك الهتاف السُّدودَ أمام سالكيها، وعدم التَّمكين للعلماء المصلحين الدَّاعين إلى الله ربِّ العالمين، الَّذين لهم دورٌ بارزٌ في حفظ أمن جماعة المسلمين بالبيان والإرشاد للقيم والفضائل لاسيما عند تفلُّت الأمن في الدِّيار، لمطالب دنيويَّة لا غير، فزادوا على الأمَّة بذاك الهتاف وبالاً وخبالاً، وما ورَّثوها إلاّ نغصًا ونكدًا وفوضى، ففقدوا معها نعمة الأمن، فحلَّ مكانَها نقمةُ الخوف والذُّعر على الأجساد والأرزاق والأعراض... ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: 83].

⌑ ⌑ ⌑

وعليه، فإنَّ توحيد الكلمة بين المسلمين لا يتأتَّى ولا يتحقَّق، إلاَّ بعد الحفاظ على أمن الدِّين والعقيدة، فالأمنُ المرهون بالدِّين يدوم ويبقَى، والدِّين في كنف الأمن يظهر ويقوَى، ومن رامَ إصلاحًا بغير منهج المرسلين زلَّ، ومن قصد هدًى بغير سبيل المؤمنين ضلَّ، ومن ابتغى عزًّا في غير الإسلام الصَّحيح ذلَّ، ومَن أراد أمنًا بغير التَّوحيد والاتِّباع ضاعَ أمنُه واختلَّ، سنَّةٌ ماضيةٌ وحقيقةٌ قاضية، وأيُّ دعوة تُبنَى على غير هذا الأساس فمصيرها إلى الفشل الذَّريع لا محالة، والله المستعان.

فهذا الحقُّ ما به خفاء
فدعني عن بُنيَّاتِ الطَّريق

⌘ ⌘ ⌘

وإنَّ الإعراض عن هذه الحقيقة الشَّرعيَّة، ومحاولة تلمُّس النَّجاة في غيرها يأذن بظهور فكر الطَّوائف المنحرفة، فالواجب إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، بدءً من حقِّ النَّفس، وانتهاءً بمعرفة حقِّ أولياء الأمور ضمن طاعة الله ورسوله، ومرورًا بتقدير حقوق الآخرين من الموافقين والمخالفين مسلمين وغير مسلمين، كلٌّ بحسبه، وَفق ما يحكم الشَّرع فيه، والتَّعاونُ بين المسلمين على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر «بالَّتي هي أحسن» «للَّتي هي أقوم»، مع مراعاة المصالح والمفاسد، والنَّظر إلى عواقب الأمور، ومآل الأقوال والأعمال والتَّصرُّفات، المتوقِّف عليها أمر الأمن وجودًا وعدمًا، لاسيما المتعلِّق منها بقضايا الأمَّة، فإدراك المقاصد الشَّرعيَّة وضبطها وتحكيمها في النَّوازل والأحوال والأهوال من ذوي العلم والبصيرة النَّافذة، ممَّا يُحافظ على استقرار أحوال النَّاس وقيام العدل بينهم، وعدم الظُّلم الَّذي يسبِّب اختلال أركان الأمن فيهم، لاسيما إذا ظهر السَّفيه منهم وتكلَّم في أمر عامَّتهم؟! والقيام بالآداب الإسلاميَّة، والأخلاق المرعيَّة، وبالدَّعوة إلى الله تعالى، بالحكمة الصَّادقة، والبصيرة النَّافذة، عبادةً وطاعةً وعلمًا وعملاً وسلوكًا، مُتَوَاصِينَ في ذلك بالحَقِّ والصَّبرِ والمرحمة، مُلْتَزِمِينَ بالنَّصِيحَة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

فبهذا كلِّه، يكون الأثر العظيم النَّافع في تحقيق الأمن والاستقرار للعباد والبلاد، حيث أرست قواعده وارتكزت على معالمه ودعائمه، تلكم الدَّعوة السَّلفيَّة المباركة، دعوة الإيمان والأمن والأمان على الأوطان، دعوة العلم والرِّفق واللِّين، الدَّعوة الهادية والهادئة، التَّربويَّة العلميَّة لا حزبيَّة ولا سياسيَّة ولا حماسيَّة تهييجيَّة...؟ فهي تريد الخير والنَّفع الدِّيني والدُّنيوي للنَّاس والمجتمع والوطن، بالإصلاح الرَّشيد الهادف دون أيِّ فساد وأدنى إفساد.

يقول الشَّيخ ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصلاحُ النَّفْسِ هو صلاحُ الفَرْد، وصلاحُ الفرد هو صلاحُ المجموع، والعنايةُ الشَّرعيَّةُ متوجِّهةٌ كُلُّهَا إلى إصلاح النُّفوس؛ إمَّا مباشرةً وإمَّا بواسطة، فما مِنْ شَيْءٍ مِمَّا شَرَعَهُ الله تعالى لعباده من الحقِّ والخيرِ والعدلِ والإحسانِ، إلاَّ وهو راجعٌ عليها بالصَّلاح، وما من شيءٍ نهى الله تعالى عنه من الباطلِ والشَّرِّ والظُّلْمِ والسُّوء، إلاَّ وهو عائدٌ عليها بالفساد؛ فتكميل النَّفْسِ الإنسانيَّة هو أعظمُ المقصودِ من إنزالِ الكتبِ وإرسالِ الرُّسلِ، وشرع الشَّرَائِعِ» «ابن باديس: حياته وآثاره» (233/1).

⌘ ⌘ ⌘

إنَّ الدَّعوة السَّلفيَّة المباركة لَحَرِيصَةٌ كلَّ الحرص على مصلحة الأمَّة، ورعاية شؤونها عمومًا، وعلى مصلحة البلاد خصوصًا، بما لا يتعارض مع الشَّرع الحكيم، ومقاصده العظيمة العليَّة الَّتي يدركها العلماء الفحول الَّذين يأخذون بأيدي الأمَّة إلى شاطئ النَّجاة؛ إذ هي دعوة تستفيد ممَّا يستجدُّ في العصر، وتتجاوب مع متطلَّبات الزَّمن، بضوابط الشَّرع، وأسسه وقواعده، وأصوله، لا تفلُّتًا ولا زيغًا ولا انحرافًا، باعتبارها جزءًا لا يتجزَّأ من الإسلام نفسه، فهي صالحةٌ ومُصلِحة لكلِّ زمان ومكان ماض وحاضر ومستقبل، متمسِّك أهلها في ذلك كلِّه بأسسها وركائزها المتينة تأصيلاً وتفصيلاً، دعوةً ومنهاجًا، واعتقادًا وسلوكًا بالعلم والعدل والحجَّة والحلم، لتحقيق الإيمان والأمان الفردي والجماعي وَفق منهج السَّلف الصَّالح، الَّذي كان عليه الجيل الفريد من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن تبعهم من التَّابعين وأتباعهم؛ إذ العصمة من الفتن والإحن الَّذي يخلُّ بالإيمان أو ينقض الأمن ويفسد الأمان، لا تحصل إلاَّ في كنف هذا النَّهج السَّلفي الصَّافي، الَّذي لا يمثِّل إلاَّ الإسلام الصَّحيح لا زيادة عليه ولا خروجًا عنه، بسلوك سبيله، وامتثال طريقه الَّذي به النَّجاة بإذن الله تعالى في الدُّنيا والآخرة: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البَقَرَة: 137].

نسأل الله، أن يهدينا سبيل الحقِّ والرَّشاد، وأن يرزقنا الأمن التَّامَّ في الدُّنيا والآخرة، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

⌘ ⌘ ⌘





أنــواع العطايــا الَّتــي أُوتِيَهــا النَّبــيُّ ﷺ في مَطلَعِ ســورة الفتح

ياسين شوشار

إمام خطيب . الجزائر العاصمة

إنَّ مِـنْ أَعظَـمِ مـا أُعطِيَـه ﷺ ممَّا تفضَّـلَ الله بـه عليـه، مـا جَمعَه لـه رَبُّه سـبحانه في الآيـاتِ الخَمسِ الأُوَلِ مِـن سورة الفتح، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [سورة الفتح].

تلك السُّـورةُ العظيمةُ الَّتي نَزلَتْ على قَلـبِ رسـولِنا الأمـينِ ﷺ في مَرحلةٍ من الزَّمنِ عصـيبة، حيث رَجعَ من الحديبية مِـن غير أن يَتمكَّن من دخـول مكَّةَ، وأداءِ مناسك العمرة.

رجـع بهدنـة في ظاهرهـا إجحـافٌ للنَّبيِّ ﷺ ومَنْ معه، ولقد تَذمَّرَ المسلمون وأَسِـفُوا أن يَعُودُوا ولم يَدخُلُوا الحَرَمَ وقد جاءوا قاصـدين له، قال ابـنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ: «نزلـت هـذه السُّـورةُ الكريمـةُ لَمَّا رَجعَ رسـولُ الله ﷺ مِـن الحديبيـة في ذي القعدة من سـنة سـتٍّ مِـن الهجرة، حين صدَّه المشـركون عن الوصول إلى المسجد الحـرام ليقضـي عُمرَتـه فيـه، وحالـوا بينه وبـين ذلك، ثمَّ مالوا إلى المصـالحةِ والمهادنـة، وأن يرجع عامَه هـذا ثمَّ يأتي مِـن قابـل، فأجابهم إلى ذلك علـى تكرُّهٍ من جماعة من الصَّـحابة، منهم عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه... فلما نحر هَديَه حيث أُحصِـرَ ورجع، أنزلَ الله عز وجل هذه السُّورةَ فيما كان من أمره وأمرهم...»[1].

يقول ابنُ القيِّـم رَحِمَهُ اللهُ: «وتأمَّلْ ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايـا، وذلك خمسـةُ أشـياء ؛ أحدها: الفتح المبين، والثَّـاني: مغفرةُ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، والثَّالث: هدايتُه الصِّراطَ المسـتقيمَ، والرَّابـع: إتمـامُ نعمَتـه عليه، والخامس: إعطاؤه النَّصرَ العزيزَ»[2].

⌑ ⌑ ⌑

وأوَّل العطايـا والهبات قولُـه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

قـال ابـنُ كثـير رَحِمَهُ اللهُ: «أنـزل الله عز وجل هـذه السُّـورةَ فيمـا كان مِـن أمـره وأمرهم، وجعل ذلك الصُّـلحَ فتحًا باعتبارِ ما فيه مِـن المصلحة، ومـا آل الأمـرُ إليه، كما رُوِيَ عـن ابن مسـعود رضي الله عنه وغيره أنَّه قال: «إنَّكُم تَعدُّون الفتحَ فتحَ مكَّةَ، ونحن نعدُّ الفتحَ صـلحَ الحديبية».

وقـال الأعمش، عن أبي سـفيان، عن جابـر قـال: «ما كُنَّـا نعـدُّ الفتـحَ إلاَّ يومَ الحديبية...»»[3].

فقـد يقـول قائـل: كيـف يكون صـلح الحديبيـة فتحًا مبينًـا؟ وهو ﷺ ما دَخَلَ مكَّـةَ ولا اعتمـر ولا قاتَلَ فَغَنِمَ، ولا بسـط نفـوذَه على مكَّةَ وما جاورهـا!! فيقال: إنَّ المُتأمِّـلَ والنَّاظرَ في سـيرَته يُـدرِكُ بما لا مجال للشَّكِّ فيه والارتياب أنَّ هذا الصُّلحَ كان فتحًـا مبينًا بحق، و ذلـك «أنَّ الفتحَ - في اللُّغة - فتحُ المُغلَق، والصُّلحُ الَّذي حصل مع المُشركين بالحُديبيَة كان مسدودًا مُغلَقًا حتَّـى فتحـه الله، وكان من أسـبابِ فتحه صدُّ رسـولِ الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصُّـورة الظَّاهرة ضَيمًا وهَضمًا للمسلمين، وفي الباطنِ عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكانَ رسـولُ الله ﷺ ينظُـرُ إلى ما وراءه من الفتح العظيم، والعزِّ والنَّصر من وراءِ سـترٍ رقيـق، وكان يُعطي المشركين كلَّ ما سـألوه من الشُّـروط الَّتي لم يحتملْها أكثرُ أصحابه ورءوسـهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضـمن هذا المكروه من محبوب ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

---

(1) «تفسير ابن كثير» (13/ 84).
(2) «بدائع الفوائد» (2/ 414).
(3) «تفسير ابن كثير» (13/ 84).

وربَّما كان مكروهُ النُّفوس إلى
محبوبها سببًا ما مثلُه سببُ

فكان يدخل على تلك الشُّروط دخولَ واثقٍ بنصرِ الله لـه وتأييـده، وأنَّ العاقبةَ لـه، وأنَّ تلـك الشُّـروطَ واحتمالَها هو عين النُّصـرة، وهو من أكبر الجند الَّذي أقامه المشـترطون ونصبوه لحَرْبهـم وهـم لا يشعرون، فذلُّوا من حيث طلبوا العزَّ، وقُهِرُوا من حيـث أظهروا القـدرةَ والفخْرَ والغلبة، وعزَّ رسولُ الله ﷺ وعسـاكرُ الإسلام من حيثُ انكسروا لله واحتملوا الضَّيم له وفيه، فـدار الـدَّورُ وانعكس الأمـرُ وانقلب العزُّ بالباطلِ ذُلاًّ بحقٍّ، وانقلبت الكسرة لله عزًّا بـالله، وظهرت حكمةُ الله وآياتُه وتصـديقُ وعده ونصرةُ رسوله على أتمِّ الوجوه وأكملها الَّتي لا اقتراحَ للعقولِ وراءَها»[4].

○ **و لهذا الفتح دلالات كثيرة، منها:**

- مـا نقله البغـوي في «تفسـيره» (4/ 222) وغيره عن الشَّعبي، في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، قـال: «فتـحُ الحديبية، غُفِـرَ لـه ما تقـدَّم من ذنبـه ومـا تأخَّر، وأُطعِمُوا نخـلَ خَيْبَرَ، وبلغ الهَـدْيُ مَحِلَّه، وظهرَت الرُّومُ على فارِس، ففرحَ المؤمنون بظهورِ أهلِ الكتابِ على المجوس...».

- ومنهـا مـا قاله ابـنُ كثـير: في قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ أي: «بيِّنًا ظاهـرًا، والمرادُ به صـلحُ الحديبية، فإنَّه حصـل بسـببه خيرٌ جزيلٌ، وآمـن النَّاسُ واجتمع بعضُـهم ببعض، وتكلَّم المؤمنُ مع الكافر، وانتشر العلمُ النَّافعُ والإيمانُ»[5].

فأعطـى الصُّـلحُ فرصـةً عظيمـةً لتعريف النَّاسِ بالإسـلام ونَشْـره بينهم: يقول الزُّهري: «فما فُتحَ في الإسـلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنَّما كان القتالُ حيثُ التقى النَّاسُ، فلمَّا كانت الهدنةُ، ووُضعَت الحـربُ، وأمِـن النَّاسُ بعضُـهم بعضًـا، والتقَوْا فتفاوضـوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّـمْ أحدٌ بالإسـلام يَعْقلُ شـيئًا إلاَّ دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنَك السَّنتيْن مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

قـال ابنُ هشـام: «والدَّليـلُ على قولِ الزُّهـري أنَّ رسـولَ الله ﷺ خـرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر ابن عبد الله، ثمَّ خـرج عامَ فتح مكَّةَ بعد ذلك بسنتيْن في عشرَة آلاف»[6].

- ومنهـا أن تعـزَّزَتْ جبهـةُ المسـلمين برجـوع مُهاجـري الحبشـة إلى المدينـة، فجاءوا ورسولُ الله ﷺ في فتح خيبر.

- ومنها أنَّه أسـلَمَ بعد صُلحُ الحديبية ثلاثـةٌ مـن صـناديد قُرَيـش مـن أعظـم قوَّادها، وأصبحوا بعد ذلك من أعظم قوَّاد المسلمين: خالد بنُ الوليد وعمرو بنُ العاص وعثمان بن أبي طلحة رضي الله عنهم، وسـيرتهم في الإسـلام مشـهورةٌ، وما كتبـه اللهُ على أيديهم من الفتح والنَّصـر غيرُ خافٍ على من له أدنى مطالعة للسِّيرة النَّبويَّة.

- ومنهـا أنَّ إبـرامَ قُرَيْش الصُّـلحَ مع المسـلمين خيرُ دليلٍ علـى اعتراف قريش بكيان المسلمين. ذلك لأنَّ المعاهدةَ لا تكون دائمًـا إلاَّ بين ندَّيْن. وأنَّ قُرَيْشًـا صـارت تَحسبُ للمسلمين حسابَهم.

وبعد هـذا الاعتراف من قريش بدأت مُعظَـمُ القبائـل المُتأثِّـرة بموقـف قريش العدائي تعترف بالمسـلمين، وهذا من بين أعظم ثمرات صلح الحديبية.

- ومنهـا أنَّ النَّبـيَّ ﷺ ضَـمِنَ بهـذا الصُّلح السَّـلامةَ من أخطر جبهة معادية وهـي قريش، فتفـرَّغ إلى الخَطَرِ الدَّاخليِّ المُتمثِّل في اليهود ومَنْ كان يعاونهم.

- ومنها أنَّ مراسـلةَ النَّبيِّ ﷺ كسرَى مَلـك الفُرسِ، وقيصـر عظيـم الـرُّوم، وسـائر زعمـاء العـالم يعرضُ عليهـم الإسـلام كان بعد الحديبية، وهو واضـح الدِّلالة على ما آل إليه أمرُ الدَّولةِ المسلمة من القوَّة والمَنَعة.

- ومنهـا دخول قبيلـة خُزَاعةَ في حلف مع رسولِ الله ﷺ، وبعدها بدأت القبائلُ تتوافد على رسـولِ الله ﷺ، فصار صلح الحديبية لأجل هذا كلِّه الفتحَ المبينَ.

- ومنها أنَّ الهدنةَ كما يقول ابنُ القيِّم: «كانـت مقدِّمـةً بين يـدي الفتـح الأعظم الَّـذي أعزَّ اللهُ به رسـولَه وجنـدَه، ودخل النَّـاسُ بـه في ديـنِ الله أفواجًـا، فكانت هـذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومُؤْذِنًا بين يديْـه، وهذه عادةُ الله سـبحانه في الأمورِ العظامِ، الَّتي يقضـيها قدَرًا وشـرْعًا، أن يوَطِّـئَ لها بين يديها مقدِّمـاتٍ وتوطِئَاتٍ، تُؤْذِنُ بها وتدلُّ عليها»[7].

⌑ ⌑ ⌑

■ **وثاني العطايا والهبات** أنَّ اللهَ تعالى امـتَّن عليه بأنْ غَفَرَ له ما تقدَّم من ذنبـه ومـا تأخَّر وهو حيٌّ صـحيحٌ، و«هذا مـن خصائصـه - صـلواتُ الله وسـلامه عليـه - الَّتي لا يشـاركه فيها غـيرُه، وليس في حديث صـحيح في ثواب الأعمال لغيره غُفرَ له ما تقدَّم من ذَنبه وما تأخَّر، وهذا فيه تشـريفٌ عظيمٌ لرسول الله ﷺ، وهو - صـلواتُ الله وسـلامُه عليـه - في جميـع أموره على الطَّاعة والبرِّ والاستقامة الَّتي لَم يَنَلْها بَشَـرٌ سـواه، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين، وهو أكملُ البشر على الإطلاق، وسيِّدُهم في الدُّنيا والآخرة»[8].

⌑ ⌑ ⌑

(4) «زاد المعاد» (3/ 269).
(5) «تفسير ابن كثير» (13/ 88).
(6) «سيرة ابن هشام» (2/ 322).
(7) «زاد المعاد» (3/ 268).
(8) «تفسير ابن كثير» (13/ 88).



■ **وثالث العطايا والهبات** تمام النِّعمة وكمال المنَّة، قال تعالى ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ يريد: أنَّ الله أنعَمَ عليك بما تَسعَدُ به فأتَمَّ ذلك في حقِّك، ومن تَتبَّع عبارات المُفسِّرين في بيان نعمة الله على عَبده ورسوله ﷺ، وجدها متنوِّعةً، ولكنَّها جميعًا تدلُّ على عُلُوِّ مكانَته وعظيم مَنزلَته عنده سبحانه وتعالى، فمن أقوالهم ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾: في الجنَّة، وقيل بالنُّبوَّة والحكمة، وقيل بإظهارك على عدوِّك ورضاه عنك، ورفعه ذكرَك في الدُّنيا، وغفرانه ذنوبَك في الآخرة، وَقيل: بفتح مكَّة والطَّائف وخيبرَ، وقيل: بخضوع مَن استكبَرَ وطاعة مَن تَجبَّر، وقيل: بإعلاء دينك وفتح البلاد على يَدك، وفي «تفسير السَّعدي» (ص791): «﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتِّساع كلمتك»، وظاهر الآية العمومُ، فيَدخُل تَحتَه كلُّ ذلك إن شاء الله تعالى.

⌑ ⌑ ⌑

■ **ورابع الهبات والعطايا** هدايته ﷺ إلى الصِّراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾، فهذه منَّةٌ عظيمةٌ ونعمةٌ جسيمةٌ امتنَّ الله تبارك وتعالى بها على نبيِّه محمَّد ﷺ، وقال في مواضع أخرى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى].

والهداية كما عرَّفها ابنُ القيِّم هي: «معرفة الحقِّ والعملُ به، فمن لم يجعَله الله تعالى عالمًا بالحقِّ عاملاً به لم يكن له سبيلٌ إلى الاهتداء، فهو سبحانه المُتفرِّدُ بالهداية المُوجِبَة للاهتداء الَّتي لا يَتخَلَّفُ عنها، وهي جعل العبد مُريدًا للهدى مُحبًّا له مُؤْثِرًا له عاملاً به، فهذه الهدايةُ ليست إلى مَلَك مُقرَّب ولا نبيٍّ مُرسَل، وهي الَّتي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦﴾»[9].

فالله قد أَولَى نبيَّه برعايَته وعنايَته فهداه وما زال يعطيه من فضائله، قال القرطبي رحمه الله: «أي: يثبِّتُك على الهدى إلى أن يقبضَكَ إليه»[10].

وقوله: ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾: قد تَنوَّعَتْ عباراتُ النَّاس فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومُتعلَّقاته، وحقيقته شيء واحدٌ، وهو: طريق الله الَّذي يرتضيه لعباده، مُوصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطُّرُق كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ طريقه الَّذي نَصبَه على ألسُن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه، وهو: إفراده بالعبوديَّة وإفرادُ رسوله بالطَّاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديتَّه، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيُجرِّدُ التَّوحيدَ ويُجرِّدُ متابعةَ الرَّسول...» قاله ابنُ القيِّم في «بدائع الفوائد» (2/ 40).

فإن قيل: فلِمَ جاء مُنَكَّرًا في قوله لنبيِّه ﷺ ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ [الفتح]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٨٧﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام]؟

فخلاصةُ الجواب من كلام ابن القيِّم: أنَّها ليست في مَقام الدُّعاء والطَّلب، وإنَّما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه، فلم يَجئْ مُعرَّفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المُخاطَب قائم في خَلده، ولا تقدَّمه في اللَّفظ معهودٌ تكون اللاَّم مصروفةً إليه، وإنَّما تأتي لامُ العهد في أحد هَذَيْن الموضعَيْن، أعني: أن يكون لها معهودٌ ذهنيٌّ أو ذكريٌّ لفظيٌّ؛ وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع، فالتَّنكيرُ هو الأصلُ، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾[11]؛ فإنَّه لمَّا تقرَّر عند المخاطبين أنَّ لله صراطًا مُستقيمًا هدى إليه أنبياءَه ورُسلَه، وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالمًا به، دخلَت اللاَّمُ عليه، فقال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

⌑ ⌑ ⌑

(9) «شفاء العليل» (1/ 53).

(10) «الجامع لأحكام القرآن» (16/ 190).

(11) «بدائع الفوائد» (2/ 13).

■ **خامس الهبات والعطايا الّتي أوتيها النّبيُّ ﷺ** أن أيّده ربُّه بنَصره فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي بسبب خضوعك لأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ يرفعك الله وينصرك على أعدائك...»(12).

وقال السَّعدي في «تفسيره» (ص791): «قويًّا لا يتضعضعُ فيه الإسلامُ، بل يحصل الانتصارُ التَّامُّ، وقمع الكافرين، وذلُّهم ونقصُهم، مع توفُّر قُوَى المسلمين ونموِّهم، ونموِّ أموالهم».

وفي «تفسير الطَّبري» (22/ 203) يقول: «وينصرك على سائر أعدائك، ومن ناوأك نصرًا، لا يَغلبُه غالبٌ، ولا يَدفَعُه دافعٌ، للبأس الَّذي يُؤَيِّدُك الله به، وبالظَّفَر الَّذي يُمدُّكَ به».

وفي «تفسير البحر المحيط» (8/ 128): «أي بالظَّفر والتَّمكُّن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل نصرًا فيه عزٌّ ومنعةٌ...

وأعيدَ لفظُ الله في ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا﴾، لمَّا بَعُدَ عن ما عُطفَ عليه؛ إذ في الجملتَيْن قبله ضميرٌ يعود على الله، وليكون المبدأُ مسنَدًا إلى الاسم الظَّاهر والمنْتَهى كذلك، ولمَّا كان الغفرانُ وإتمامُ النِّعمة والهداية والنَّصر يشترك في إطلاقها الرَّسُولُ ﷺ وغيرُه بقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وَقَوْلِه: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢﴾؛ وكان الفتحُ لم يبْقَ لأحد إلاَّ للرَّسول ﷺ، أَسْنَدَهُ تعالى إلى نون العظمة تفخيمًا لشأنه، وأسْنَدَ تلكَ الأشياءَ الأربعةَ إلى الاسم الظَّاهر، واشتركَت الخمسةُ في الخطاب له ﷺ، تأنيسًا له وتعظيمًا لشأنه، ولم يأتِ بالاسم الظَّاهرِ؛ لأنَّ في الإقبال على المُخَاطَب ما لا يكون في الاسم الظَّاهر».

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ انظُرْ منَّةَ الله على عبده ورسوله كيف «جمع سبحانه له بين الهدى والنَّصر؛ لأنَّ هذَيْن الأصلَيْن بهما كمالُ السَّعادة والفلاح، فإنَّ الهدى هو: العلمُ بالله تعالى ودينه والعملُ بمرضاته وطاعته، فهو العلم النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والنَّصرُ، وهو: القدرة التَّامَّةُ على تنفيذ دينه؛ بالحجَّة والبيان، والسَّيف والسِّنان، فهو النَّصرُ بالحجَّة واليد، قهر قلوبَ المخالفين له بالحجَّة، وقهر أبدانَهم باليد.

وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذَيْن الأصلَيْن؛ إذ بهما تمامُ الدَّعوة وظهور دينه على الدِّين كلِّه؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33] في موضعَيْن في سورة براءة، وفي سورة الصَّفِّ، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25]، فهذا الهدى، ثمَّ قال: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: 25]، فهذا النَّصرُ، فذكر الكتاب الهادي والحديدَ النَّاصر، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران]، فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النَّصر الَّذي يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطل.

وسرُّ اقترانِ النَّصر بالهدى: أنَّ كُلاًّ منهما يحصل به الفرقان بين الحقِّ والباطل، ولهذا سمَّى تعالى ما يَنصُرُ به عبادَه المؤمنين فُرقانًا، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ [الأنفال: 41]، فذكر الأصلَيْن ما أنزله على رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الَّذي فَرَّقَ الله تعالى فيه بين الحقِّ والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم، ومن هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [سورة الأنبياء]، فالفرقان: نَصرُه له على فرعَون وقومه، والضِّياءُ والذِّكرُ: التَّوراة...»(13).

فصُلح الحديبية حادثٌ عظيمٌ «كان فيه خيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأن كان سببًا لتشريفه بالمغفرَة العامَّة ولإتمام النِّعمة عليه ولهدايته صراطًا مستقيمًا ولنَصْره نصرًا عزيزًا، فأعْظِمْ به حَدَثًا أعْقَبَ هذا الخيرَ للرَّسول ﷺ ولأَصحابه»(14).

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله ﷺ، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

⌑ ⌑ ⌑

(12) «تفسير ابن كثير» (14/ 89).

(13) «بدائع الفوائد» (2/ 15).

(14) «التَّحرير والتَّنوير» (26/ 127).







أسس بيت المسلم

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

إنَّ ممَّا لا يَختلفُ فيه اثنان أنَّ نِعَمَ الله تُحيطُ بنا من كلِّ جانب، وتُسبغُ علينا ظاهرًا وباطنًا، ونَتقلَّبُ فيها صباحَ مساء، وليلَ نهار، لا تَنقَطِعُ عنَّا طَرفَةَ عينٍ، ولا نُحرَم منها أدنى شيء.

ومن أعظم نِعَم الله على بني آدم أنْ جَعلَ لهم بُيوتًا ثَابتةً لإقامتهم في الحضَر، وبيوتًا متَنقِّلةً لأسفارهم في البَرَاري والصَّحاري، يَسكُنُون فيها ويَستَريحون، ويَستَدفئُون بها من القَرِّ، ويَستَظلُّون بها من الحَرِّ، ويستترون بها عن الأنظار، ويَحتَمون بها من الأخطار، ويَحرزُون فيها أموالَهم، ويحفظون فيها أمتعَتَهم ومُؤَنَهم، ويُربُّون فيها أولادَهم، ويُكرمُون فيها ضيفَانَهم، وغير ذلك من المصالح والمنافع.

وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النِّعمة في سورة عظيمة من القرآن، وهي سورة النَّحل، ويُسمِّيها بعضُ العلماء سورة النِّعَم؛ لِمَا فيها من ذكر نِعَم الله الظَّاهرة والباطنة، قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ [النحل: 80].

فذكَر أوَّلاً بيوتَ التَّمدُّن؛ لأنَّها الأصلُ، وهي للإقامة الطَّويلة، وجعلَها سَكنًا بمعنى السُّكون، أي أنَّ الخَلقَ يَستَريحون فيها من التَّعب والحركة، ويَنعَزلون فيها عمَّا يُقلقُهم ويُرهقُهم، فتكون قرارًا لهم يَنعَمُون فيها بالهدوء والرَّاحة.

ثمَّ ذكَرَ تعالى البيوتَ القابلةَ للانتقال والارتحال تنبيهًا على حال أكثر العرب، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ يعني: وجعل لكم بيوتًا خفيفةَ المَحمَل من الخيام والبيوت المصنوعة من جلود الأنعام يَسهُل عليكم نَقضُها من مواضعها وطيُّها وحملُها على الرَّواحل، وحين تُنيخون إناخةَ الإقامة في الموضع المُنتقَل إليه.

فنعمةُ السَّكن في البيوت هي من عظيم نِعَم الله على بني الإنسان، لا سيَّما هذه البيوت الحديثة، وبعضها مُزوَّد بكلِّ وسائل الرَّاحة من الإنارة والتَّكييف الصَّيفي والشَّتوي، والمياه المُتدفِّقة العذبة، الحارَّة والباردة، وهو ممَّا يَستَوجب الشُّكرَ لله، والقيام بطاعته أحسن قيام، ومَنْ تأمَّلَ حال من لا يجد مَسكنًا يَستكنُّ فيه ويُؤويه، ويَقيه من أذى الغوائل اعْتَبَرَ بحال من أدركه حتفه في حوالك اللَّيالي المُظلمات في الأرصفة والشَّوارع والبيوت الخاليات، ومن الدَّعوات المباركات الَّتي كان يحافظ عليها الرَّسولُ ﷺ عندما يأوي إلى فراشه لينام قوله ﷺ: «الحَمْدُ لله الَّذي أطْعَمَنَا وسَقَانَا وكَفَانَا وآوَانَا، فكَمْ مَنْ لا كَافيَ لَهُ ولا مُؤْوي»[1].

وكلَّما كان المسكنُ أوسع وأرحب، ومَرافقُه أكثر وأوفر، من غير إسراف ولا تبذير، كان ذلك دليلاً على سعادة المرء دينًا ودنيا، مُعينًا له على طاعة مولاه وشكر نعمه وآلائه، قال رسولُ الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَة المَرْءِ المُسلم المَسْكَنُ الوَاسِعُ، والجَارُ الصَّالِحُ، والمَرْكَبُ الهَنيءُ»[2].

(1) مسلم (2715).
(2) أحمد (15372)، والبخاري في «الأدب المفرد» (116) وانظر «الصحيحة» (282).



وقال أيضًا: «ثَلاَثٌ مِنَ السَّعَادَةِ وثَلاَثٌ مِنَ الشَّقَاوةِ؛ فَمِنَ السَّعَادَةِ المَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وتَغِيبُ عنها فتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهَا ومَالِكَ، والدَّابَةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلحقكَ بأَصْحَابِكَ، والدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ المَرَافِقِ؛ ومِنَ الشَّقَاءِ المَرْأَةُ تَرَاهَا فَتَسُوؤُكَ، وتَحْمِلُ لِسَانَهَا عَلَيْكَ، وإِنْ غِبْتَ عنها لم تَأْمَنْهَا على نَفسها ومَالِكَ، والدَّابَّةُ تكون قطوفًا، فإِنْ ضَرَبْتَهَا أَتْعَبَتْكَ، وإِنْ تَرَكْتَهَا لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ، والدَّارُ ضَيِّقَةٌ قَلِيلَةُ المَرَافِقِ»[3].

⌑ ⌑ ⌑

هذا؛ وإنَّ من الأمور المعابة الَّتي ابتُلِيَ بها كثيرٌ من النَّاس في هذا الزَّمان كثرة شَغَفهم وتَعلُّقهم بالبُنيان، وتَسخيرَ أَوقاتهم وتَبذيرَ أموالهم في بناء القصور، وتشييد العمائر الَّتي تزيد على حاجتهم وحاجة عيالهم، ووقوعهم في كثير من المناهي والمحظورات؛ كالفخر والمباهاة والتَّبذير والإسراف وتضييع الأعمار فيما لم يُخلَقْ له الإنسان.

وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ بأنَّ التَّطاوُلَ في البنيان من أمارات السَّاعة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ... وحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي البُنْيَانِ»[4]؛ وأنَّ أهلَه المُتعلِّقين به الخائضين فيه ليسوا من خيار النَّاس وعليائهم، بل هم من الأعراب الجُفاة، رِعاء الشَّاة، أسافل النَّاس ودهمائهم، قال ﷺ مُخبرًا عن أشراط السَّاعة: «وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ»[5]، وجاء وصفهم في حديث آخر بأنَّهم صمٌّ بكمٌ عُمْيٌ، ويعني ذلك أنَّهم جَهَلَةٌ رَعَاعٌ، لم يستعملوا أسماعهم ولا كلامهم في علم، ولا في شيء من أمر دينهم[6].

والمقصود من هذا الحديث كما قال القرطبي: «الإخبار عن تَبدُّل الحال، وتَغيُّره، بأن يستوليَ أهلُ البادية الَّذين هذه صفاتُهم على أهل الحاضرة ويتملَّكوا بالقهر والغلبة، فتكثر أموالُهم وتَتَّسع في حُطام الدُّنيا آمالهم، فتنصرف هممهم إلى تشييد المباني وهَدم الدِّين وشريف المعاني، وأنَّ ذلك إذا وُجِدَ كان من أشراط السَّاعة»[7].

وقد جاءت أحاديثُ عن النَّبيِّ ﷺ فيها التَّرهيبُ من البناء إذا كان فوقَ الحاجة، واتُّخِذَ من أجل المفاخرة والمباهاة؛ كقوله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ البِنَاءَ»[8]، وقوله ﷺ: «أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلاَّ مَا لاَ، إِلاَّ مَا لاَ»، يعني ما لا بد منه[9].

وأصل الوبال الثِّقَلُ والمكروه، وأُريدَ به في الحديث العذابُ في الآخرة وسوءُ العاقبة، والمراد بالبناء الَّذي هو وَبالٌ على صاحبه: بناءُ القصور المُشَيَّدة والحصون المانعَة الَّتي تُتَّخذُ للتَّرفُّه ويرجو أصحابها بها التَّمكُّن في الدُّنيا والتَّشبُّهَ بمن يَتمنَّى الخلودَ في الدُّنيا ويلتهي بذلك عن ذكر الآخرة، وقد ذم الله فاعل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء] قيل: المصانع هي القصور المُشَيَّدةُ، وقوله: «إِلاَّ مَا لاَ...» أي ما لا بدَّ منه للإنسان ممَّا يَستُره من الحرِّ والبرد وتَسلُّط السِّباع واللُّصوص عليه[10].

والمراد من هذه النُّصوص «صرف المسلم عن الاهتمام بالبناء وتشييده فوق حاجته، وإنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الحاجةَ تختلفُ باختلاف عائلة الباني قلَّةً وكثرةً، ومَنْ يكون مضيافًا ومن ليس كذلك، فهو من هذه الحيثيَّة يلتقي تمامًا مع الحديث الصَّحيح: «فِرَاشٌ للرَّجُل، وفِرَاشٌ لامْرَأَته، والثَّالثُ للضَّيْفِ، والرَّابعُ للشَّيْطَانِ» رواه مسلم[11].

⌑ ⌑ ⌑

وليس في هذه النُّصوص ما قد يُتَوَهَّمُ من أنَّ البناءَ كلَّه إثمٌ، فقد قال الحافظ ابنُ حجر في «الفتح» (19/ 196 ـ 198) بعد أن ساق جملة من أحاديث ذمِّ البناء: «وهذا كلُّه محمولٌ على ما لا تَمسُّ الحاجةُ إليه ممَّا لا بدَّ منه للتَّوطُّن، وما يقي من البرد والحرِّ»، وقال في ردِّ هذا التَّوهُّم:

---

(3) الحاكم (2/ 162)، وانظر «الصحيحة» (1803).

(4) البخاري (7121).
(5) مسلم (8).
(6) «المفهم» (1/ 149).
(7) «المفهم» (1/ 149).
(8) البخاري في «الأدب المفرد» (447) موقوفا على خباب رضي الله عنه، وصححه الألباني مرفوعا في «الصَّحيحة» (2831).

(9) أبو داود (5237) وهو في «الصَّحيحة» (2830).
(10) «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (19/ 603 وما بعدها) بتصرف.
(11) «السلسلة الصحيحة» (6/ 802).

«وليس كذلك؛ بل فيه التَّفصيل: وليس كلُّ ما زاد منه على الحاجة يستلزم الإثم،... وإن كان في بعض البناء ما يحصل به الأجر مثل الَّذي يحصل به النَّفع لغير الباني، فإنَّه يحصل للباني به الثَّواب»، ومن أمثلة ما يحصل به النَّفعُ لغير الباني المُؤَجِّر، فالباني يحصل له الثَّوابُ لا سيَّما إذا راعى دَخلَهُ وخَفَّفَ عنه ثمن الإيجار.

وإذا كان اتِّخاذُ البيوت للسُّكنى ممَّا أباحه الشَّرع لنا ودَعَتْ حاجة البشر إليه في كلِّ زمان ومكان، فإنَّ بيتَ المسلم الَّذي يَبنيه أو يَسكُنُه بالإيجار يجب أن يكون مُتميِّزًا عن غيره من البيوت؛ بفعل ما شَرعَه الله للمسلمين في بيوتهم من ذكر الله والإكثار من صلوات النَّوافل فيها وقراءة القرآن، وخُلوِّها من وسائل اللَّهو والفساد والتَّصدية كما قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس]، قال ابن جرير (15/ 171): «واجعلوا بيوتكم مساجد تُصلُّون فيها».

¤ ¤ ¤

وأوَّل ما ينبغي أن يُبنَى عليه بيتُ المسلم هو تقوى الله عَجَّلَك وتوحيده وشكره على ما وَفَّقَ إليه من هذه النِّعمة الَّتي أُعطيَها وحُرِمَ منها آخرون، فإذا وضع الأساسَ للبناء وشرع في تشييده فلا يفعل ما يقوم به الجهلة من المسلمين، يذبحون ذبحًا، ويُريقُون دمَه على الأساس أو على عَتَبة الدَّار إرضاءً للجنِّ، أو خوفًا من أذاه؛ فإنَّه من الشِّرك العظيم المُحبط للأعمال المُفسد للأحوال الَّذي نهى عنه الشَّرعُ وقبَّح فاعلَه.

¤ ¤ ¤

وعلى من وُفِّقَ لبناء بيته أن ينتخب له نفقةً حلالاً خاليةً من السُّحت والرِّبا والمال الحرام وسؤال النَّاس، فيبني بيتَه على قدر نَفقَته ودَخله، ولا يدفع بنفسه إلى القرض من البنوك الَّتي تتعامل بالرِّبا كما هو شائع اليوم، فإنَّ ذلك حرامٌ في شَرعنا، جالبٌ لسخط الرَّبِّ تعالى، مانعٌ من حصول البركة على ساكني البيت.

والبيت هو المأوى الَّذي يأوي إليه المسلم ويسعه دون سائر الدُّور والملاجئ كما قال النَّبيُّ ﷺ لعقبة بن عامر رضي الله عنه: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ»، ثمَّ هو المحضَن الَّذي يُربِّي فيه أولادَه ويعاشر أهلَه ويكرم أضيافَه، ويخلِّفه لورثته، فهل يرضى مسلم يخاف الله ويتَّقيه أن يعيش بالحرام ويموت عليه، ويترك نارًا لأولاده من بعده، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].

¤ ¤ ¤

وإنَّ ممَّا يقع فيه بعضُ النَّاس في بناء بيوتهم أكلَ عَرَقِ العاملين فيه، من بَنَّائين وحِرَفيِّين وأهل المِهَن المختلفة، حتَّى إنَّ بَعضَهم قد يَتغافَلُ قصدًا عن وَضع الشُّروط عند الشُّروع في العمل وترك التَّفاهم مع مَنْ يعمل له ليكون ذريعةً لبَخس حقِّه، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»[12]، ويقول أيضا فيما يرويه عن ربِّه عَجَّلَك: «ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[13]، وعلى من رزقه الله مالا أن يتسامح ويتجاوز ويكافئ بالحسنى ولا يبخس النَّاس أشياءهم.

¤ ¤ ¤

وإنَّ ممَّا يجب أن يتميَّز به بيت المسلم عن غيره من بيوت المخالفين له في دينه أن يكون مستورًا مصونًا عن الأنظار المسمومة، يأمن ساكنه من الاطِّلاع على عوراته، ومن نعم الله على المسلمين أن مَتَّعهم بوجود علماء ومهندسين، تألَّقُوا فيما يُسمَّى اليوم بالفنِّ المعماري المُطابِق لتعاليم الإسلام، المحافظ على قِيَم وعادات المسلمين من خُلُق وحياءٍ وحِشمَةٍ وغيرة.

وأكبرُ دليل على ذلك ما تركه المسلمون من المباني الفريدة من نوعها في بلاد الأندلس، وما خلَّفه الأتراكُ في بلاد المسلمين، وذلك النَّمطُ من البناء كان معروفًا عندنا إلى أمد ليس ببعيد، فكان ما يُعرَفُ عند أهل العاصمة والمدن العامرة بـ«وسط الدَّار» حيث تمارس المرأة أشغالها في مأمن وستر، ولكن لمَّا غزا الكفَّارُ ديارَ أهل الإسلام صَرَفُوهم عن الاهتمام بمثل هذه الهندسة وحملوهم على تقليدهم والتَّشبُّه بهم في بناء الدُّور في نَمطها وشَكلها كما قال ابنُ خلدون في «مُقدِّمته» (1/ 184): «كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة؛ فإنَّك تجدهم يَتشَبَّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عَوائدهم وأحوالهم، حتَّى في رَسم التَّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتَّى لقد يَستَشعرُ من ذلك النَّاظرُ بعين الحكمة أنَّه من علامات الاستيلاء، والأمرُ لله».

ولذلك ترى مُعظَمَ من يُهيِّئُ مَسكَنًا اليومَ من المسلمين لا يحترم فيه قواعدَ

(12) ابن ماجه (2443) وهو صحيح، انظر «الإرواء» (1498).

(13) البخاري (2270).

البناء وتصميماته عند أمَّة الإسلام، ولا ينجز فيه المرافق الَّتي تُميِّزُه عن غيره من بيوت الكفَّار والَّتي تُعينُه على طاعة الله؛ كتهيئة طابق أو جهة من المسكن للضُّيوف، فيه جميعُ المَرافقِ المُحتاج إليها، وهذا ليس موجودًا إلاَّ عند المسلمين؛ لأنَّ إكرامَ الضَّيف من خلال الإسلام وآدابه.

وإنَّ ما تتميَّزُ به بيوتُ المسلمين تَخصيصُ مكان لإقامة الصَّلاة فيه، والعجب أنَّك تدخل دارًا واسعةَ الأرجاء كثيرةَ المرافق، فإذا حان وقتُ الصَّلاة لا تكاد تجدُ مكانًا تقيم فيه الصَّلاةَ، وإذا دخلت جهةً من جهاته أو ولجت غرفةً وجدتَّ فيها شاشات تَعرضُ صورًا وأصواتًا، وقد جاء في السُّنَّة أن يَتَّخذَ المرءُ في بيته مسجدًا، وترجم أبو داود في «سننه»: باب اتِّخاذ المساجد في الدُّور، وساق بسنده إلى عائشة أنَّها قالت: «أمر رسولُ الله ﷺ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تُنَظَّفَ وتُطَيَّبَ»[14] وقد كان الصَّحابةُ يَطلُبون من النَّبيِّ ﷺ أن يُصلِّيَ لهم في بيوتهم حتَّى يَتَّخذُوا ذلك المكان مسجدًا؛ لما في إقامة الصَّلاة في البيوت من حلول السَّكينةِ والطُّمَأنينَة في أرجائه، وحصولِ الخَيرَاتِ والبَركَات لساكنيه.

⌑ ⌑ ⌑

وممَّا يجب أيضًا أن يُصَانَ عنه بيتُ المسلم: الصُّورُ والتَّماثيل والكلاب؛ لما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لاَ تَدخُلُ المَلاَئكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»[15]، وفي رواية لمسلم: «وَلاَ تَدْخُلُ المَلاَئكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا تَمَاثيلُ».

ففي الحديث دليل على تحريم تعليق الصُّوَر الَّتي فيها روح على جدران الغرف والمجالس والمكاتب، وفيه دليلٌ على عقوبة من يَفعَلُ ذلك بحرمانه من دخول الملائكة بيتَه، وحينئذ يَخسرُ خسرانًا مبينًا، وقد ابتلي بعضُ النَّاس اليوم بهاتين الظَّاهرتَيْن السَّيِّئَتَيْن، فتراهم يَنصبُون تماثيلَ كبيرةً أو صغيرةً للآدميِّين أو للحيوانات أو للطُّيور، ويجعلونها على طاولات المجالس ونحوها للتَّزيين، ومنهم من يضع تمثال أسدَيْن عند مدخل المنزل أو تمثال نسر، وكلُّ هذا من مظاهر الوثنيَّة وفعل الجاهليَّة، الصَّادر عن ضعفاء الحصانة العقديَّة والسُّلوكيَّة في تَلقُّف كلِّ وافد.

⌑ ⌑ ⌑

وظاهرة أخرى وهي اقتناء بعضهم الكلاب في بيوتهم وتباهيهم بها وصحبتهم لها في الشَّوارع والسَّيَّارات، وقد قال ﷺ: «مَن اقْتَنَى كَلْبًا إلاَّ كَلْبَ صَيْد أو مَاشيَة فَإنَّهُ يَنقُصُ منْ أَجْره كُلَّ يَوْم قيرَاطَان»[16].

فاتِّخاذ الكلاب في البيوت لغير الحاجة المرخَّص فيها شرعًا فيه محاذير عدَّة:

أوَّلاً: أنَّه يمنع دخول الملائكة البيت، وفي هذا أعظم الحرمان.

ثانيًا: ينقص من أجره كلَّ يوم قيراطان، وهذا نقص عظيم ومستمرٌّ، والمسلم لا يُفرِّط في الأجر ولو كان قليلاً.

ثالثًا: في ذلك تشبُّه بالكفَّار الَّذين يعتنون بالكلاب ويَهتَمُّون بتَربيَتها، والتَّشبُّه بهم حرامٌ كما هو معلوم من النُّصوص والقواعد الشَّرعيَّة.

رابعًا: ما يحصل فيها من الضَّرَر والإيذاء؛ كأذيَّة الجيران والمارَّة، ولما تُصدرُه من النُّبَاح، ولما فيها من النَّجاسة والأضرار الصِّحِّيَّة في لُعابها وملامستها.

والَّذي يتوجب على المسلمين أن يَعتنوا ببيوتهم وبمن فيها وأن يراعوا لها حرمتها، حتَّى تصير بيوتا إسلاميَّةً نظيفةً، حيَّةً بذكر الله وعبادته، مليئةً باليمن والبركات، بعيدةً عن كلِّ ما يتنافى مع آداب الإسلام وأحكامه، ويجر إلى الآثام والانسلاخ من ربقة الدِّين.

حفظ الله بيوت المسلمين وملأها عليهم بالخير والبركات وصانها عن كل سوء ومكروهات، وصلى الله وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم

(14) أبو داود (455)، وإن كان الأشهر في معنى الحديث أنَّ المراد به القبائل والأحياء.
(15) البخاري (3225)، ومسلم (2106).
(16) أحمد (4549) وأصله في «الصحيحين».





أ.د.محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في ثبوت البنوَّة بعد إسلام الأبوين



■ **السُّؤال:**

أسلم رجلٌ كافرٌ هو وخليلتُه، وكان بينهما أبناءٌ بمجرَّد المصاحَبة والمعاشرة دون زواجٍ متقدِّمٍ، فهل يثبت لهؤلاء الأبناءِ حكمُ البنوَّة بعد إسلام الأبوين؟ وهل تثبت ـ أيضًا ـ جميعُ الأحكام المتعلِّقة بذلك كالمَحْرَمية مع الأخوال والأعمام؟ وجزاكم الله خيرًا.

■■■

■ **الجواب:**

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبِه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فقَدْ فرَّق النبيُّ ﷺ بين النِّكاح والسِّفاح في أنكحة الكُفَّار فقال ﷺ: «مَا وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، مَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحٌ كَنِكَاحِ الإِسْلَامِ»[1]، فما أثبتوه نكاحًا في غير الإسلامِ فإنَّ صحَّتَه تثبُتُ ـ في الإسلام ـ وتترتَّب عليه أحكامُه وفقًا للقاعدة العامَّة في زواج غيرِ المسلمين، وهي: «إقرارُ ما يُوافِقُ الشَّرعَ منها إذا أسلموا»، قال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله: «أجمع العلماءُ أنَّ الزَّوجَيْن إذا أسلما معًا في حالٍ واحدةٍ أنَّ لهما المُقامَ على نكاحهما، إلَّا أَنْ يكون بينهما نسبٌ أو رضاعٌ يُوجِبُ التَّحريمَ، وأنَّ كُلَّ مَنْ كان له العقدُ عليها في الشِّرك كان له المُقامُ معها إذا أسلما معًا، وأصلُ العقدِ معفيٌّ عنه؛ لأنَّ عامَّةَ أصحابِ رسول الله ﷺ كانوا كُفَّارًا فأسلموا بعد التَّزويج، وأُقِرُّوا على النِّكاح الأوَّل، ولم يُعتبَرْ في أصل نكاحهم شروطُ الإسلام، وهذا إجماعٌ وتوقيفٌ»[2].

فهذا فيما يعتقد الكُفَّارُ حِلَّه مِنَ الأنكحة في دينهم، أمَّا ما يعتقدون تحريمَه مِنْ أنكحةٍ فاسدةٍ أو سفاحٍ فإنَّهم لا يُقَرُّون على ما يعتقدون بطلانَه كما لا يُقَرُّون على أكلهم الرِّبَا وقد نُهُوا عنه، ولا على سرقة بعضِهم أموالَ بعضٍ، وقتلِ بعضِهم بعضًا.

فإِنْ أسلما على هذا الوجه مِنَ السِّفاح الَّذي يَعتقِدون بطلانَه فقَدِ اتَّفق العلماءُ على أنَّ «الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[3]، ولكنَّهم يختلفون في وجوب تجديد النِّكاح بينهما ـ في الإسلام ـ وعدمِه؟

والأَوْلى ـ عندي ـ تجديدُ عقد النِّكاح بينهما بالشُّروط الشَّرعيَّة ـ احتياطًا للدِّين ـ لاعتقادهم عدمَ صحَّة العلاقة والمعاشَرة بينهما في دينهم ودينِنا، وإِنْ كان الإسلامُ قد صحَّح الأنكحةَ الفاسدة في حالة الكفر إذا لم يكن المُفسِدُ قائمًا، كأَنْ تكون إحدى مَحارِمه مِنَ النَّسب أو المصاهرة أو الرَّضاع ونحو ذلك[4].

أمَّا حكمُ الولد فإنَّه يَتبَعُ خيرَ أبويه دينًا، فإِنْ أسلما معًا فإنه يُنْسَبُ إلى أبيه، وتجري عليه جميعُ الآثار المتعلِّقة بذلك مِنْ مَحْرَميَّةٍ ووصيَّةٍ وميراثٍ وغيرِها مِنَ الأحكام والحقوق؛ فقَدْ روى مالكٌ في «الموطَّإ» عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سليمان

(1) أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى» (14076) مِنْ حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وبمعناه ابن أبي شيبة (31641) والآجُرِّيُّ في «الشريعة» (957) مِنْ حديث عليٍّ رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (1914).

(2) «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (12/ 23).

(3) أخرجه أحمد (17777) مِنْ حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (1280).

(4) انظر: «أحكام أهل الذمَّة» لابن القيِّم (1/ 396).

ابن يَسَار: «أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب كان يُليطُ [أي: يُلْحِقُ] أولادَ الجاهليَّة بمَن ادَّعَاهُمْ في الإسْلام»[5].

ولا يخفَى أنَّهم كانوا - في جاهليَّتهم - يسافحون ويناكحون، وأكثرُ نكاحاتهم - على حكم الإسلام - غيرُ جائزة، وقد أمضاها رسولُ الله ﷺ وكذلك فَعَل عمرُ رضي الله عنه ، والعلم عند الله تعالى.

◎◎◎

في عدم ثبوت الحضانة للأب الكافر

■ **السُّؤال:**

أسلمَت امرأةٌ وكان لها مِنْ زوجها الكافر أبناءٌ صغارٌ، وبقي أبوهم على كفره؛ فأرادَتْ أنْ تتزوَّج بمسلم، لكنَّ القوانين الوضعيَّةَ تُوجِبُ عليها التَّنازلَ عن أبنائها لمصلحة الزَّوج الكافر وإلاَّ بَقِيَتْ بلا زوجٍ؟ فما توجيهُكم حَفِظكم اللهُ ورعاكم.

■■■

■ **الجواب:**

فالمرأة الكافرة المتزوِّجة مِنْ كافرٍ - إنْ أسلمَتْ بمُفْرَدها دون زوجها - انْفَسَخَ النِّكاحُ بينهما، وفُكَّت العصمةُ الزَّوجيَّةُ، وتجب عليها العدَّةُ، فإن انقضَتْ عدَّتُها - بعد الإسلام وطَهُرَتْ - جاز لها أنْ تتزوَّج بمَنْ شاءَتْ مِنَ المسلمين الأَكْفَاء، فإنْ أسلم زوجُها الكافرُ - وهي في عِدَّتِها - كان أحَقَّ بها؛ فلا داعيَ لتجديد عقد النِّكاح بينهما، بل يُستصحَبُ العقدُ الأوَّلُ [الأصليُّ] وتسري أحكامُه عليهما؛ لأنَّ القاعدة العامَّة في زواج غير المسلمين هي: «إقرارُ ما يُوافِقُ الشَّرعَ منها إذا أسلموا»، قال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله: «أجمع العلماء أنَّ الزَّوجين إذا أسلما معًا في حالٍ واحدة أنَّ لهما المُقامَ على نكاحهما، إلاَّ أنْ يكون بينهما نسبٌ أو رضاعٌ يُوجِبُ التَّحريمَ، وأنَّ كُلَّ مَنْ كان له العقدُ عليها في الشِّرك كان له المُقامُ معها إذا أسلما معًا، وأصلُ العقد معفيٌّ عنه؛ لأنَّ عامَّةَ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كُفَّارًا فأسلموا بعد التَّزويج، وأُقِرُّوا على النِّكاح الأوَّل، ولم يُعتبَرْ في أصل نكاحهم شروطُ الإسلام، وهذا إجماعٌ وتوقيفٌ»[6].

أمَّا الحضانةُ فهي ثابتةٌ للأمِّ على أبنائها الصِّغار؛ فهي أَحَقُّ بهم لقوله ﷺ: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي»[7]، وذَكَر ابنُ المنذر رحمه الله الإجماعَ «على أنْ لا حقَّ للأمِّ في الولد إذا تزوَّجَتْ»[8]، غير أنَّ الحضانةَ تبقى لها - وإنْ تزوَّجَتْ - إذا كَمُلَت الشَّرائطُ فيها، ولم يُوجَدْ مَنْ يقومُ بصفات الحضانة غيرُها؛ لأنَّ الحضانةَ ولايةٌ تعتمد على الشَّفقة والتَّربية والمُلاطَفة، والولدُ يَتبَعُ خيرَ أبويه دينًا، وولايةُ الكافر على المسلم غيرُ جائزةٍ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]؛ فهي كولاية الزَّواج والمال؛ وعليه فلا تَثبُتُ الحضانةُ للأب الكافر - على الصَّحيح مِنْ أقوال أهل العلم - لأنَّ مِنْ شروط الحضانة الكفاءةَ، والكافرُ ليس كذلك، بل هو غيرُ مأمونٍ على أبنائه الصِّغار، ولا يُوثَقُ به في أداء واجب الحضانة، وقد يَنشَأُ الأولادُ تنشئةَ ملَّة أبيهم الكافر ودِينِه، ويتخلَّقون بأخلاقه البعيدة عن فطرة الإسلام وأخلاقه السَّمحة، ويَصعُبُ - بعد ذلك - تحويلُهم عمَّا نشَأُوا عليه وتخلَّقوا به، وهذا أعظمُ ضررٍ يلحق الولدَ بحضانةٍ فاسدةٍ لا مُراعاةَ فيها للجانب الدِّينيِّ والخُلُقيِّ والتَّربويِّ.

وعليه؛ فإنَّ ممَّا تقتضيه الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ أنَّه متى أَخَلَّ أحدُ الأبوين بأمر الله ورسوله ﷺ في الصَّبيِّ وعطَّله، وراعاه الآخَرُ فهو أَحَقُّ به وأَوْلى.

هذا ما تَقرَّر شرعًا، والمسلمُ لا يرضى بغير حكم الله تعالى بديلاً، ولا يُقِرُّ بما تَجري عليه القوانينُ الوضعيَّةُ مِنْ موادَّ قانونيَّةٍ، وخاصَّةً إذا خالفَت الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ وبايَنَتْ مبادئَها وتعاليمَها.

وعلى مَنْ تجبُ في حقِّه حضانةُ الأولاد أنْ يسعى - جاهدًا - للتخلُّص مِنْ تَبِعات القوانين الوضعيَّة، مع استفراغ جميع طاقته ووُسْعِه لإيجاد الحلِّ المُناسِب لقضيَّته، باستخدامه كافَّةَ الطُّرُق الشَّرعيَّة الكفيلة بذلك؛ حفاظًا على دِين الأولاد وفطرتهم، وصونًا لأخلاقهم؛ عملاً بقوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: 30] الآيَةَ[9].

والعلم عند الله تعالى.

---

(5) أخرجه مالكٌ في «الموطَّإ» (2/ 740)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (21263).

(6) «التمهيد» لابن عبد البرِّ (12/ 23).

(7) أخرجه أبو داود (2276) مِنْ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّنه الألبانيُّ في «الإرواء» (2187).

(8) «الإجماع» لابن المنذر (85).

(9) أخرجه البخاريُّ (1358)، ومسلمٌ (2658)، مِنْ حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في كيفيَّةِ وضوءِ مَنْ شقَّ عليه نزعُ الجوربِ اللاَّصِقِ

■ **السُّؤال:**

امرأةٌ تشتكي مِنْ مرض الدوالي (varices) في رجليها، ولمداواته أُلبِسَتْ ما يشبه الجوربَ اللاَّصق مِنْ نصف القدم إلى أعلى الرجل بحيث يظهر أمشاطُ النصف الأوَّل مِنَ القدم، ويتعذَّر عليها نزعُه في كُلِّ يومٍ لمشقَّةِ ذلك، فكيف يكون وضوؤُها؟ وجزاكم الله خيرًا.

■ ■ ■

■ **الجواب:**

إذا كانت المَشقَّةُ تَكمُنُ في تَكرارِ نزعِ الجورب اللاَّصق، فللمرأة ـ في الصُّورةِ المذكورة ـ بعد غَسْلِ رجلَيْها في طهارةٍ حُكميَّةٍ: وضوءٍ أو غُسْلٍ، أَنْ تُضيفَ جَوْرَبَيْنِ خَفيفَيْنِ فوقَ الجَوْرَب اللاَّصق تُغطِّي به سائرَ قدمَيْها، ولها ـ بذلك ـ أَنْ تتوضَّأ وتمسحَ على جَورَبَيْها؛ لأنَّ حُكمَ القَدمَيْن اللَّتيْن ليس عليهما شيءٌ ملبوسٌ أَنْ تُغْسَلا، وحكمُهما إذا كان عليهما شيءٌ ملبوسٌ أَنْ يُمْسَح على ذلك الشَّيءِ إذا لُبِس على طهارة؛ فعن المغيرة بنِ شعبة رضي الله عنه قال: «تَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ عَلَى الجَوْرَبَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ»[10]، علمًا أنَّ مدَّةَ المسح ثلاثةُ أيَّام ولياليهنَّ للمسافر، ويومٌ وليلةٌ للمُقيم ـ كما ثَبَت ذلك في السنَّة[11] ـ ويبدأ توقيتُ المسح مِنْ أوَّلِ مسحٍ بعد الحدث على القول الرَّاجح.

أمَّا إذا كان يَلْزَمُ ـ طبًّا ـ أَنْ تبقى أمشاطُ النِّصفِ الأوَّل مِنَ القدم مكشوفةً لفعاليَّةِ العلاج أو تعجيلِ الشِّفاء؛ فإنَّه يجوز ـ حالتَئذٍ ـ الجمعُ بين الوضوء والتَّيمُّم، فتغسل ما انكشف مِنْ رجلَيْها وتتيمَّم للجزء الَّذي تعذَّر غَسْلُه، وذلك بضرب الكفَّيْن بالصَّعيد الطَّاهر، ثمَّ تمسح بهما الوجهَ والكفَّين؛ عملاً بقاعدة: «المَعْسُورُ لا يُسْقِطُ المَيْسُورَ».

وعليه، فكُلُّ ما دَخَل تحت الاستطاعة ففرضُه العملُ وهو الغَسْلُ، وما لا يُقتدَرُ على فعله فيُعْدَلُ به إلى البدل وهو التَّيمُّم، وبذلك يُجْمَعُ بين الوضوء والتَّيمُّم؛ لأنَّ كُلَّ ما عَجَز عنه المكلَّفُ فهو مشمولٌ بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، وقوله ﷺ: «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[12].

والعلم عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

◎◎◎



(10) أخرجه أبو داود (159)، والترمذيُّ (99)، وابنُ ماجه (559)، مِنْ حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. قال أبو داود: «ومَسَح على الجوربين عليُّ ابنُ أبي طالب، وابنُ مسعود، والبراء بنُ عازب، وأنس ابنُ مالك، وأبو أمامة، وسهل بنُ سعد، وعمرو بنُ حُرَيث، ورُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطَّاب وابن عبَّاس»، وقال التِّرمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (101).

(11) لقول عليٍّ رضي الله عنه: «جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ لِلْمُسَافِرِ، وَيَوْمًا وَلَيْلَةً لِلْمُقِيمِ»، أخرجه مسلم (276).

(12) أخرجه البخاريُّ (7288)، ومسلمٌ (1337)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.





سعد بن إبراهيم
قاضي المدينة

صالح الكشبور
مرحلة الدكتوراه ـ جامعة الجزائر

فقد استوقفني كلامٌ للإمام أبي الوليد الباجي رحمه الله في سعد بن إبراهيم، والباجي معروفٌ بإمامته في الدِّين وتضلُّعه في فنون العلوم، ولا حاجة لذكر ترجمته وبيان كبير منزلته وعظيم قدره رحمه الله فهي مشهورةٌ في كتب التَّراجم والتَّواريخ، وقد ترجم لسعد بن إبراهيم قاضي المدينة في كتابه «التَّعديل والتَّجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الجامع الصَّحيح»، فظهر لي في كلامه رحمه الله بعضُ التَّنبيهات، وعنَّ لي في عباراته ما دفعني لتجليَته، وذلك أخذًا بالإنصاف في سعد بن إبراهيم رحمه الله، على أنَّ الهفوةَ لا يَسلَمُ منها إنسانٌ مهما علا كعبُه في العلم، وجلَّ قدرُه في الفهم، قال الحافظ ابنُ حجر: «وقد أشار أبو الوليد الباجي في رجال البخاري إلى الطَّعن في سعد بن إبراهيم»[1].

فجعلتُ ما قصدتُه في مطلبَين:

فأمَّا الأوَّل ففي ترجمة سعد.

وأمَّا الثَّاني ففي الكلام على ما ذكره الباجي رحمهما الله.

(1) «فتح الباري» (2/ 486).

المطلب الأوَّل: ترجمةٌ موجزةٌ لسعد

■ نسبه ومولده:

سعدُ بنُ إبراهيم بن عبد الرَّحمن بن عوف بن عبد عوف ابن عبد بن الحارث ابن زُهرَة، وأمُّه أمُّ كلثوم بنتُ سعد ابن أبي وقَّاص بن أُهَيب بن عبد مناف ابن زُهرَة[2]، قاضي المدينة، أبو إسحاق، ويقال: أبو إبراهيم القُرَشي الزُّهري المدني، أورده ابنُ سعد في الطَّبقة الرَّابعة من أهل المدينة.

ومن لطيف ما اتَّفق له أنَّ والدَ أبيه صحابيٌّ من العَشَرة المبشَّرين، وهو عبدُ الرَّحمن بنُ عوف، ووالدُ أمِّه كذلك صحابيٌّ من العشرة المبشَّرين، وهو سعدُ ابنُ أبي وقَّاص، وفي هذا قال أحدُهم شعرًا يمدح سعدًا:

أبوهُ حَواريُّ النَّبيِّ وجدُّه
أبو أمِّه سعدٌ فيا لك من سعد

وُلدَ رحمه الله سنةَ أربع وخمسين[3]، قال الذَّهبي: «فيكون مولدُه في حياة عائشة أمِّ المؤمنين»[4].

(2) «طبقات ابن سعد» (7/ 447).
(3) «تاريخ دمشق» (20/ 209).

■ شيوخه والرُّواة عنه:

رأى ابنَ عمر وجابرًا، وحدَّث عن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، وأنس ابن مالك، وأبي أمامَة بن سهل، وعبد الله ابن شدَّاد بن الهاد، وأبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وأبي عبيدة بن محمَّد ابن عمَّار، وسعيد بن المسيِّب، وحفص ابن عاصم، وأبيه إبراهيم وعمِّه حميد، وخالَيه إبراهيم وعامر ابنَي عامر ابن سعد، وعُروَة بن الزُّبير، وعبد الرَّحمن ابن هُرمُز الأعرج، والقاسم بن محمَّد، وطلحة بن عبد الله ابن عوف، وطلحة ابن عبد الله بن عثمان، وعبيد الله ابن عبد الله بن عُتبَة، ومَعبَد الجُهَني، ونافع ابن جُبَير، ومُحمَّد ابن حاطب، وخَلق سواهم.

وروى عنه ولَدُه الحافظُ إبراهيم ابن سعد، والزُّهري، ويزيد بن الهاد، وموسى ابنُ عقبة، ويحيى بنُ سعيد الأنصاري، وابنُ عجلان، وأيُّوب السَّختيَاني، وزكريَّا ابن أبي زائدَة، ومِسعَر، وابنُ إسحاق، ويونُس بن يزيد وشعبة، وسفيان، وعبد العزيز بنُ الماجشُون، وحمَّادُ بنُ سَلَمَة،

(4) «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 421).

وحمَّاد بنُ زيد، وعبدُ الله بن جعفر المخرمي، وأبو عوانة، وسفيان بنُ عُيَيْنة وآخرون[5].

■ نماذجُ من صلاحِه وثناء الأئمَّة عليه[6]:

قال حجَّاج بن محمَّد: «كان شعبةُ إذا ذكر سعدَ بنَ إبراهيم قال: «حدَّثني حبيبي»، قال: وكان سعد يصومُ الدَّهر ويختمُ القرآن في كلِّ يوم وليلة».

وقال شعبةُ: «كان سعدُ بنُ إبراهيم ابن عبدِ الرَّحمن يختم القرآن في كلِّ يوم وليلة».

وقال ابنُ سعد بن إبراهيم: «كان أبي يحتبي، فَمَا يَحُلُّ حَبوَتَه حتَّى يَختِمَ القرآنَ».

وعنه قال: «كان حزب أبي سعد ابن إبراهيم من البقرة إلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1]».

وقال إبراهيم بن سعد: «كان أبي سعدُ بنُ إبراهيم إذا كانت ليلةُ إحدى وعشرين وثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين وتسع وعشرين لم يُفطِرْ حتَّى يَختِمَ القرآنَ، وكان يفطر فيما بين المغرب والعشاء»، وقال: «كان أبي سعد ابن إبراهيم كثيرًا ما إذا أفطر يُرسِلُ إلى مساكين فيأكلون معه»[7].

وقال سفيانُ بنُ عُيَيْنَة: «كنتُ عند ابن شهاب، فجاء إبراهيمُ بنُ سعد فرَفَعَه وأكرَمَه، ثمَّ أقبلَ على القوم فقال: إنَّ سعدًا أوصاني بابنه وسعدٌ سعدٌ».

وعنه قال: «دخلتُ أنا وابنُ جُرَيْج على الزُّهري، ومع ابن جُرَيْج صحيفةٌ، فقال له: إنِّي أريد أن أعرضَها عليك، فقال الزُّهري: «إنَّ سعدَ بنَ إبراهيم كلَّمني في ابنه، وسعدٌ سَعدٌ»، قال سفيان: فخرجتُ أنا وابنُ جريج وهو يقول: «فَرَقَ ـ والله ـ ابنُ شهاب من سَعد بن إبراهيم»[8].

وفي سعد يقول الشَّاعر:

أسعد بن إبراهيم خمس مناقب
عفاف وعدل فاضل وتكرُّم
ومجد وإطعام إذا هبت الصفا
وأمر بمعروف إذا الناس أحجموا

■ عدلُه وصلابتُه في القضاء:

قال الإمامُ أحمدُ في سعد: «كان ثقةً، فاضلاً، وَلِيَ قضاءَ المدينة»[9]، وأورد الذَّهبي رحمه الله كلامًا لشُعبَة في سعد ابن إبراهيم، ثمَّ قال: «وقال غيرُه: «كان لا تأخُذُه في الله لومةُ لائم، وكان من قُضَاة العَدلِ»[10]، وكان مَهيبًا رحمه الله، يُبجِّلُه النَّاسُ في القضاء وغيره، قال سفيانُ بنُ عيينة: «أتى عَزلُ سعد بن إبراهيم عن القضاء، كان يُتَّقَى كما يُتَّقَى وهو قاض»[11]، وقال أبو بكر محمَّد بنُ خَلَف: «وكان سعدٌ صليبًا في الحكم، شريفًا، يُهَابُ ويُتَّقَى»[12]، وممَّا يدلُّ على قيامه بالحقِّ أنَّه دخلَ ناسٌ من القُرَّاء عليه يعودونَه، منهم: ابنُ هُرمُز وصالحُ مَولَى التَّوأَمَة، فاغْرَوْرَقَتْ عينَا ابنِ هُرمُز، فقال له سعد: ما يُبكيكَ؟ قال: والله لكأنِّي بقَائلة غدًا تقولُ: واسَعدَاه للحقِّ ولا سعدا، قال ـ أي سعد ـ: «أما والله لَئِنْ قلتَ ذلك، ما أَخَذَني في الله لومةُ لائم منذُ أربَعين سنةً، ثمَّ قال سعد: أليس اللهُ يَعلَمُ أنَّكم أحبُّ خَلقه إليَّ؟ ـ يعني القُرَّاء ـ»[13].

وأكتفي بقصَّتَيْن تدلَّان على تعظيمه للسُّنَّة النَّبويَّة وغيرَته العظيمة لأصحاب رسول الله ﷺ:

○ عن ابن أبي ذئب قال: «قضى سعدُ بنُ إبراهيم على رجل برأي رَبيعَة ابن أبي عبد الرَّحمن، فأخبَرتُه عن رسول الله ﷺ بخلاف ما قضى به، فقال سعدٌ لربيعة: هذا ابنُ أبي ذئب، وهو عندي ثقةٌ يُحدِّثُ عن النَّبيِّ ﷺ بخلاف ما قضيت به! فقال له ربيعةُ: قد اجتهدتَ ومضى حُكمُك، فقال سعد: عجبًا! أُنفذُ قضاءَ سعد وأَرُدُّ قضاءَ رسول الله ﷺ؟ بل أردُّ قضاءَ سعد بن أمِّ سعد وأُنفذُ قضاءَ رسول الله ﷺ، فدعا سعدٌ بكتاب القضيَّة فشقَّهُ وقضى للمَقضيِّ عليه.

○ كان رحمه الله عند ابن هشام المخزومي ـ أمير المدينة ـ، فاختصَمَ عنده ـ يعني الأمير ـ يومًا ابنُ مُحمَّد بن مَسلَمَة وآخَرُ من بني حارثة، فقال ابنُ مُحمَّد: أنا ابنُ قاتل ابن الأَشْرَف، فقال الحارثي: أما والله ما قَتَلَ إلاَّ غَدرًا، فانتظَرَ سعدٌ أن يُغيِّرَها ابنُ هشام فلم يَفعَلْ، حتَّى قاما، فلمَّا استَقضَى سعدٌ قال لمولاه شعبة ـ وكان يَحرُسُه ـ: أُعطي الله عهدًا لَئِنْ أفْلَتَك الحارثيُّ لأُوجِعَنَّك، قال شعبة: فصلَّيتُ معه الصُّبحَ ثمَّ جئتُ به سعدًا، فلمَّا نظرَ إليه سعدٌ شقَّ القميصَ ثمَّ قال: أنتَ القائلُ إنَّما قُتِلَ ابنُ الأشرف غَدرًا؟ ثمَّ ضَربَه خمسين ومئةً وعاقبَه، قال: والله لأقوِّمنَّك

(5) انظر «تهذيب الكمال» (10/ 241)، «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 418)، وذكر أبو أحمد الحاكم الإمامَ مالكًا رحمه الله ممَّن روى عن سعد: ولم يُوافقه أحد، انظر «تاريخ دمشق» (20/ 208).

(6) وقد أخرتُ كلامَ الأئمَّة في توثيقه إلى المَطلَب الثَّاني لمناسبة ذلك.

(7) انظر هذه الآثار: «تاريخ دمشق» (20/ 214).

(8) «تاريخ دمشق» (20/ 221) وقد أورد مُحمَّد بنُ خَلَف وكيع (ت306هـ) في «أخبار القضاة» (ص107ـ 110) جملةً من أخباره في القضاء.

(9) «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 419).

(10) المصدر السابق.

(11) «تاريخ دمشق» (20/ 218)، «تاريخ الإسلام» (8/ 112).

(12) «أخبار القضاة» (ص102).

(13) انظر الخبر: «تاريخ دمشق» (20/ 217)، «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 420)، وفيه: ثمَّ قال سعدٌ: «أليس الله يَعلَمُ أنَّكم أَحَبُّ خَلقه إليَّ؟ ـ يعني القرآن ـ»، وهو تصحيف والصواب: يعني القرَّاء.

بالضَّربِ ما كان لي عليكَ سلطانٌ[14].

■ وفاتُه:

تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ بالمدينة سنةَ خمسٍ وعشرين ومئة، وقيل سنةَ ستٍّ وعشرين، ويقال أيضًا سنة سبع وعشرين، ومات وهو ابن اثنتين وسبعين[15].

المطلب الثاني: كلام أبي الوليد الباجي في سعد بنِ إبراهيم

وطعنه رَحِمَهُ اللهُ في سعد يرجع ـ من خلال كلامه ـ إلى أحد أمرَيْن:

1 ـ لأنَّه لم يَكُنْ من أهلِ التحديث، ولم يُرْتَضَ في الرِّواية.

2 ـ أو لأنَّـه طَعَـنَ في نَسبِ مالكٍ، ما أَوجَبَ تَوهينَه.

فقد قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يُعلَمُ له جزية تُوجِبُ ردَّ حديثِه: غَيرَ قلَّة علمِه بالحديثِ أو لطعنه في نسب مالك»[16].

1 ـ الكلام في توثيقِ سعدِ ابنِ إبراهيم:

فأمَّا كونُ سعد رَحِمَهُ اللهُ قليلَ العلم بالحديث وهو الَّذي أراد الباجي رَحِمَهُ اللهُ تقريرَه، وأنَّه غيرُ مُحتَمَلٍ للتَّفرُّد فهذا الَّذي قصد أبو الوليد تمريرَه؛ فلم يُوافقْه أحدٌ على صنيعِه هذا ـ كما سيأتي بيانه ـ، فقد قال رَحِمَهُ اللهُ: «فإن كان مالكٌ وأهلُ المدينة تركوا الأخذَ عنه لأنَّه لم يَكُنْ عندهم من أهل هذا الشَّأن فهو الَّذي ذَهبْتُ إليه من حاله، والَّذي ظهر إليَّ من قلَّة حديثه مع ما فيه ممَّا لا يَحتَمِلُه مثلُه؛ كالحديثِ الَّذي ذكرتُه[17] فلا أرى الاحتجاجَ به»[18]، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فعندي أنَّه ليس بالحافظ وقد أغربَ بما لا يَحتَمِلُه عندي حالُه مع قلَّة حديثِه، ولعلَّ ذلك كانَ من قلَّة حفظِه»[19].

وهذه جملةٌ من ثناء أئمَّة الجَرحِ والتَّعديلِ عليه ـ ممَّن عاصر سعدًا أو جاءَ بعده ـ، وتوثيقهم له:

قال فيه ابنُ سَعد: «كان ثقةً كثيرَ الحديث»[20].

وقال أحمَدُ بنُ حنبل: «سعد بن إبراهيم ثقةٌ، ولي قضاء المدينة وكان فاضلاً، وكان الزُّهري يقول: سعد سعد»، وقال يحيى بنُ معين: «سَعدُ بنُ إبراهيم ثقةٌ».

وقال عليُّ بنُ عبد الله المديني: «كان سعد بن إبراهيم لا يُحدِّثُ بالمدينة، فلذلك لم يَكتُبْ عنه أهلُ المدينة، ومالك لم يَكتُبْ عنه، وإنَّما سَمِعَ شُعبَةُ وسفيَانُ عنه بواسط، وسمع منه ابنُ عُيَيْنَة بمكَّة شيئًا يسيرًا»، ووثَّقه كذلك أبو حاتم الرَّازي[21].

وقال حجَّاجٌ الأعور: «كان شعبةُ إذا ذكر سعد ابنَ إبراهيم، قال: «حدثني حبيبي سعد بن إبراهيم، يصوم الدَّهر، ويختم القرآن في كلِّ يوم وليلة».

وقال عبدُ الله بنُ شُعَيب عن ابنِ معين: «ثقةٌ لا يُشَكُّ فيه»، وقال الدُّوري وغيرُ واحد عن ابن معين: «ثقة»، وكذا قال العجلي والنَّسائي[22].

وقال ابنُ البرقي: «سألتُ يَحيَى ابنَ معين عن قول النَّاس في سعد بن إبراهيم أنَّه كان يرى القَدَرَ وتَرَكَه مالكٌ؟ فقال: «لم يكن يرى القدرَ، وإنَّما ترك مالكٌ الرِّوايةَ

(14) «أخبار القضاة» (ص107)، «تاريخ دمشق» (20/ 217.216)، «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 420).

(15) «أخبار القضاة» (ص110)، «تاريخ دمشق» (20/ 224).

(16) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1247).

(17) وهو حديث البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قراءة النَّبيِّ ﷺ صبح الجمعة، وسيأتي الكلام عليه. إن شاء الله ـ.

(18) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1249).

(19) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1246).

(20) «طبقات ابن سعد» (7/ 447).

(21) انظر هذه الآثار: «الجرح والتَّعديل» لابن أبي حاتم الرَّازي (4/ 97).

(22) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 689).



عنه لأنَّه تكلَّم في نَسَب مالك فكان لا يروي عنه، وهو ثَبْتٌ لا شكَّ فيه».

وقال عبدُ الرَّحمن بنُ يوسف ابن خراش: «سعد ابنُ إبراهيم مَدَنيٌّ هو ابنُ عبد الرَّحمن بن عَوف من الثِّقات»، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «إبراهيم بنُ سعد صدوقٌ من أهل المدينة، وأبوه كان من جِلَّة المسلمين وكان على قضاء المدينة»[23]، وقال أبو بكر محمَّد بنُ خَلَف: «وسعد بن إبراهيم ممَّنْ حُملَ عنه العلمُ الكثيرُ، وكان يَكتُبُ عمَّنْ هو أَصغَرُ منه»[24].

قال الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ: «وكان من كبارِ العلماء، يُذكَرُ مع الزُّهري، ويحيى ابن سعيد الأنصاري»، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الإمام الحجَّةُ الفقيهُ»[25]، وقال كذلك: «كان طلاَّبَةً للعلم»[26].

ثمَّ قال العلاَّمةُ الباجي رَحِمَهُ اللهُ: «وإن كان البخاري قد أخرج عنه حديثَه عن الأعرج عن أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ «كان يقرأ في الجمعة في صلاة الفَجر ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ﴾ السَّجدة و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾» هذا الحديث ممَّا انفَرَدَ به، ولم يُتابَعْ عليه من طريق صحيح، مع ترك النَّاس العملَ به ولاسيَّما أهلُ المدينة، ولو كان ممَّا يُحتَجُّ به لتُلقِّيَ بالعملِ به من جميع أهلِ المدينة أو بعضهم؛ إذ هو من حديثها، ولكان عند أبي الزِّناد أو غَيره من أصحاب الأعرج ممَّنْ هو أَرْوَى عن الأعرج منه»[27].

وفي هذا الكلام نظرٌ من وجوه:

أوَّلاً: لم يَنفَرِدْ سعدٌ رَحِمَهُ اللهُ والأعرج بروايةِ الحديث، فقد تابعَه محمَّدُ ابنُ زياد قال: سمعتُ أبا هريرة به... أخرجه أحمد (2/ 430) وسندُه صحيحٌ على شرط السِّتَّة[28]، ثمَّ للحديث شواهدُ من حديث ابن عبَّاس وابنِ مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

ـ أمَّا حديث ابنِ عبَّاس فأخرجه مسلم (879) وأبو داود (1076) والنَّسائي (1420) والتِّرمذي (520) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجة (821) وغيرهم عن سعيد بن جبير عنه به.

ـ وأمَّا حديثُ ابنِ مسعود فأخرجه ابن ماجه (824) والطَّبراني في «المعجم الكبير» (10085) عن أبي الأحوص عنه، ورواه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (5939) عن أبي وائل عن ابن مسعود به[29].

ثانيًا: ما ادَّعاه رَحِمَهُ اللهُ من تَرك النَّاس لهذه السُّنَّة لاسيَّما أهل المدينة فيه نظرٌ، فقد ورد العملُ بها من كثير من الصَّحابة والتَّابعين، قال الحافظُ ابنُ حجر في ردِّ كلام الباجي: «وأمَّا دعواه أنَّ النَّاسَ تركوا العملَ به فباطلةٌ؛ لأنَّ أكثَرَ أهلِ العلم من الصَّحابة والتَّابعين قد قالوا به كما نقلَه ابنُ المُنذِر وغيرُه، حتَّى إنَّه ثابتٌ عن إبراهيم بن عبد الرَّحمن ابنِ عوف والدِ سَعد وهو من كبار التَّابعين من أهلِ المدينة أنَّه أمَّ النَّاسَ بالمدينة بهما في الفَجرِ يومَ الجُمعَة، أخرجه ابنُ أبي شيبة بإسناد صحيح[30]، وكلامُ ابن العربي يُشعِرُ بأنَّ تركَ ذلك أمرٌ طَرأَ على أهلِ المدينة؛ لأنَّه قال: وهو أمرٌ لم يُعلَمْ بالمدينة، فاللهُ أَعلَمُ بمَنْ قَطعَه كما قُطِعَ غَيْرُه»[31].

وقال الحافظُ العراقي: «وممَّن كان يَفعَلُه من الصَّحابة عبدُ الله بنُ عبَّاس، ومن التَّابعين إبراهيمُ بنُ عبد الرَّحمن ابنِ عَوف وهو مذهبُ الشَّافعي وأحمد وأصحابِ الحديث، وكرهه مالكٌ وآخرون».

وقال كذلك العراقي ـ في بيان عمل السَّلف بهذه السُّنَّة ـ: «قد فعله عمرُ بنُ الخطَّاب وعثمانُ بنُ عفَّان وابنُ مسعود وابنُ عمر وعبدُ الله بنُ الزُّبَير، وهو قولُ الشَّافعي وأحمد، وقد كرِهَه في الفريضة من التَّابعين أبو مِجْلَز وهو قولُ مالكٍ وأبي حنيفة وبعض الحنابلة»[32].

ثالثًا: قولُه رَحِمَهُ اللهُ: «ولكان عند أبي الزِّناد أو غيره من أصحاب الأعرج ممَّن هو أَرْوَى عن الأعرج منه»، وهذا لا يضرُّ ـ إن شاء الله ـ؛ لأنَّ الثِّقةَ إذا انْفرَدَ برواية الحديث عن باقي الثِّقات فليس سببًا لتَوهين حَديثه، خاصَّةً إذا كان الشَّيخُ مُكثِرًا مثلَ الأعرج، لكنَّ الشَّأنَ فيما إذا روى عن شيخه ما خالَفَه غيرُه من الثِّقات أو ممَّنْ هو أَوثَقُ منه بوَجه لا يمكنُ الجمعُ بينهما، فحينها يُضطَرُّ إلى التَّرجيح، وتَصيرُ روايةُ الثِّقة المُنفَرِد والمخالفةَ لمن هو أَرجَحُ منه من قَبيل الحديث الشَّاذِّ، قال الشَّافعي وجماعةٌ من أهل الحجاز: «الشَّاذُّ عندنا ما يرويه الثِّقاتُ على لفظ واحد ويَرويه ثقةٌ خلافَه زائدًا أو نَاقصًا»[33]، فكيفَ إذا تعَضَّدَتْ روايةُ المُنفَرِد بمُتابَعة وشَواهدَ صحاح؟!

2 ـ الكلامُ في طَعنِه في نَسَبِ مالك:

قال أحمدُ بنُ حَنبَل: قال سعدُ ابنُ إبراهيم لمالك وهو في حلقته: «أَنْتَ الَّذي تُخالِفُ عمَّكَ وتدَّعي أنَّكَ منْ ذي

(23) «تاريخ دمشق» (20/ 212).
(24) «أخبار القضاة» (ص102).
(25) «سير أعلام النُّبلاء» (5/ 418).
(26) «تاريخ الإسلام» (8/ 113).
(27) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1247).

(28) قاله العلاَّمة الألباني في «إرواء الغليل» (3/ 95).
(29) انظر: «فتح الباري» (2/ 486)، «نيل الأوطار» (4/ 396)، «إرواء الغليل» (3/ 95).
(30) «المُصنَّف» (5449).
(31) «فتح الباري» (2/ 486).

(32) نقل كلامه الشَّوكاني في «نيل الأوطار» (4/ 397).
(33) «الإرشاد» للخليلي (1/ 176).

أَصْبَحَ؟»[34]، فزعم سعدٌ أنَّ مالكًا من مَوالي التَّيْمِيِّين، ومالكٌ يَزعُمُ أنَّه من أنفُسِهم، وهو الَّذي وقع عليه الإجماعُ إلاَّ ممَّنْ وَهِمَ، قال القاضي عياض: «وأمَّا وَهمُ مَنْ زعم أنَّه مَوْلَى تَيْم فدخل عليه الوهمُ إذ وَجَدَه يَنتمي إليهم ويُحسَب في عدادهم بسبب حلفه معهم، وإلاَّ فنَسَبُهم في ذي أَصْبَح صحيحٌ»[35].

والَّذي يظهر أنَّ مَنْ تَكَلَّمَ في سَعد إنَّما هو لطَعنه في نَسَبِ مالك رحمه الله[36]، فامتَنَع - أي الإمام مالك رحمه الله - من الرِّواية عنه لأجل ذلك، قال ابنُ عبد البرِّ: «وأمَّا امتناعُ مالكٍ عن الرِّواية عن سعد فلكَونه طعن في نسب مالك»[37]، ففهم بعضُهم أنَّ تركَ الإمام مالك الرِّوايةَ عنه تضعيفٌ له، خاصَّةً وأنَّ أهلَ المدينة لم يَروُوا عنه رحمه الله؛ ولم يَنقُلْ أحدٌ من المُتقدِّمين عن الإمام مالك أنَّه تَكلَّم في سعد أو ضعَّفَه، قال أبو زكريَّا السَّاجي: «ومالكٌ إنَّما ترك الرِّوايةَ عنه، فأمَّا أن يكون يَتكلَّم فيه فلا أحفظه، وقد روى عنه الثِّقاتُ والأئمَّة وكان دَيِّنًا عفيفًا»[38].

وأوَّلُ مَنْ نَسَبَ إلى مالك تضعيفَ سعد هو ابنُ العربي، قال العراقي: «ولم أَرَ مَنْ نقل عن مالك تضعيفَه غيرَ ابن العربي، ولعلَّ الَّذي أوقعه في ذلك هو أنَّ مالكًا لم يَرْوِ عنه»[39].

وهذا الَّذي حمَلَ الباجي رحمه الله على الطَّعن في سَعد فقال رحمه الله: «وإن كان أهلُ المدينة تَركُوه لطَعنه في نَسبِ مالك على وجه يُوجِبُ ردَّ حديثِه فالأمرُ أشدُّ فيه، والله أعلم»[40].

وزاد الأمرَ تأكيدًا - في نظر الباجي - إطباقُ أهلِ المدينة على ترك الرِّواية عنه، فقال رحمه الله: «ولو تَرَكَه مالكٌ لذلك مع رضا أهلِ المدينة به لحدَّثَ عنه سائرُ أهلِ المدينة، وقد ترك جميعُهم الرِّوايةَ عنه في قولِ جماعة أهلِ الحفظ من أئمَّة أهلِ الحديث»، وقال رحمه الله: «وأمَّا قولُ عليِّ ابن المديني: كان لا يحدِّثُ بالمدينة، فمنْ هذا البابِ أيضًا، يَحتَملُ أن يكون لا يحدِّثُ بها لما شَمَلَهم من تركِ الأخذ عنه: إمَّا لأنَّه لم يكن من أهلِ هذا الشَّأن، أو لأنَّهم علموا من طَعنِه في نسبِ مالك ما أوجب ذلك»[41].

وفي هذا الكلام نظرٌ من وجوه:

أوَّلاً: لم يوافقِ الأئمَّةُ مالكًا في تركه الرِّوايةَ عن سعد ويروي - مع ذلك - عمَّنْ هو أقلُّ منه بمفاوز، قال الحافظُ ابنُ حجر - في ترجمة داود بن الحُصَين الأموي -: «وعاب غيرُ واحدٍ على مالك الرِّوايةَ عنه وتَركَه الرِّواية عن سعد ابنِ إبراهيم»[42]، وممَّنْ عابَ على مالك رحمه الله: المعيطي؛ فإنَّه قال لابن معين: «كان مالك يَتكلَّم في سعد: سيِّد من سادات قُرَيْش، ويَروي عن ثَور وداود بن الحُصَين خارجيَّيْنِ خَبيثَيْنِ»[43]، وبمثلِ هذا ردَّ العلماءُ ما قاله الإمامُ ابنُ المديني رحمه الله: «كلُّ مدنيٍّ لم يُحدِّثْ عنه مالكٌ ففي حديثه شيءٌ، لا أعلَمُ مالكًا تركَ إنسانًا إلاَّ إنسانًا في حديثِه شيءٌ»[44]، قال ابنُ رجب - تعقيبًا على كلام ابن المديني -: «وهذا على إطلاقه فيه نظرٌ؛ فإنَّ مالكًا لم يُحدِّثْ عن سعد بن إبراهيم وهو ثقةٌ جليلٌ مُتَّفَقٌ عليه»[45].

ثانيًا: أنَّ كلامَ مالكٍ في سعد - على فرض وقوعه - من قبيلِ كلام الأقرانِ الَّذي يُطوَى ولا يُروَى، فكما لَم يَعتَبرِ العلماءُ كلامَ سعد في مالك - رحمهما الله -، كذلك لم يَعتَبرُوا كلامَ مالكٍ في سعد، وما أَحسَنَ ما قاله مُحمَّدُ ابنُ فُلَيح: «ولم يَنجُ كثيرٌ من النَّاس من كلام بعضِ النَّاس فيهم، نحو ما يُذكَر عن إبراهيم من كلامه في الشَّعبي، وكلامِ الشَّعبي في



(34) «إكمال تهذيب الكمال» لمُغْلَطاي (5/ 225).

(35) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (1/ 107)، وانظر مَنْشأ هذا الوهم والظَّنِّ: «ترتيب المدارك» (1/ 111 - 112).

(36) وقيل في سبب وجد مالك على سعد لمعنى آخر، وهو ما قاله أبو زكريا السَّاجي: «ويقال: إنَّ سعدًا وَعَظَ مالكًا فوَجَدَ عليه فلم يَرْوِ عنه»، انظر «تهذيب التَّهذيب» (1/ 690).

(37) «نيل الأوطار» (4/ 397).

(38) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 690).

(39) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 690).

(40) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1249).

(41) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1248).

(42) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 562).

(43) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 690).

(44) «الكامل في ضعفاء الرِّجال» لابن عدي (1/ 91).

(45) «شرح علل التِّرمذي» (2/ 782).

عكرمة، وفيمن كان قَبلَهم، وتَأويل بعضهم في العرض والنَّفس، ولم يَلتفتْ أهلُ العلم في هذا النَّحو إلاَّ ببيانٍ وحجَّة، ولم تَسقُطْ عدالتُهم إلاَّ ببرهانٍ ثابت وحجَّة»[46]، ثمَّ هذا محمَّد بنُ إسحاق قد تكلَّمَ في نَسب مالك، قال الذَّهبي: «ورُويَ عن ابن إسحاقَ أنَّه زعم أنَّ مالكًا وآلَه مَوالي بَني تَيْم، فأخطأ وكان ذلك أَقْوَى سَبَبٍ في تَكذيب الإمام مالك له وطعنه عليه»[47]، وقال ابنُ حبَّان: «لم يَكُنْ بالحجاز أحَدٌ أعلَمَ بأنساب النَّاس وأيَّامهم من محمَّد ابن إسحاق، وكان يَزعُم أنَّ مالكًا من مَوالي ذي أَصْبَح وكان مالكٌ يزعُمُ أنَّه من أنفُسهم، فوقَعَ بينَهما لهذا مفاوضةٌ»[48]، وقد اعتذرَ العلماءُ عن تكذيب مالكٍ لابن إسحاق وتناوله له، ومنهم البخاري فقال رَحِمَهُ اللهُ: «لو صحَّ عن مالك تناولُه من ابن إسحاقَ فلرُبَّما تكلَّم الإنسانُ فيَرمي صاحبَه بشيءٍ واحد ولا يتَّهمُه في الأمور كلِّها»[49]، فكيف لا يُعتَذَرُ لسعد وهو أوثَقُ من ابن إسحاق؟ وحتَّى الباجي نفسُه يقرِّرُ هذا، فقد قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولا أذهب إلى أنَّ سعدَ بنَ إبراهيم يجري مَجرَى محمَّد بن إسحاق؛ فإنَّ سعدَ بنَ إبراهيم أحسن حديثًا وأكثَرُ توقِّيًا وأظهَرُ تديُّنًا»[50].

ثالثًا: لم يَلتفت العلماءُ إلى ترك مالك رَحِمَهُ اللهُ الرِّوايةَ عن سعد، وصرَّحوا أنَّه لا يَضرُّ ذلك سعدًا، فهذا الإمام أحمد ابنُ حنبل قال في سعد: «ثقةٌ»، فقيل له: إنَّ مالكًا لا يُحدِّثُ عنه، فقال: «من يلتفت إلى هذا! سعد ثقةٌ رجلٌ صالحٌ»، وقال أحمد ابن البرقي: سألت يحيى عن قول بعض النَّاس في سعد أنَّه كان يرى القدرَ وتَرَكَ مالكٌ الرِّوايةَ عنه؟ فقال: «لم يكُنْ يرى القدَرَ، وإنَّما ترك مالكٌ الرِّوايةَ عنه لأنَّه تكلَّم في نسب مالك فكان مالك لا يروي عنه، وهو ثَبْتٌ لا شكَّ فيه»[51].

وسئل أحمدُ بنُ حنبل: لِمَ لَمْ يَروِ عنه مالك؟ فقال: «كان له مع سَعد قصَّةٌ»، ثمَّ قال: «ولا يُبالي سَعدٌ إذا لم يَرْوِ عنه مالكٌ»[52].

رابعًا: قولُه رَحِمَهُ اللهُ في أهل المدينة: «وقد ترك جميعُهم الرِّوايةَ عنه في قول جماعة أهل الحفظ من أئمَّة أهل الحديث»، فيه نظر! فإنَّ سعدًا هو الَّذي أَبى تحديثَ أهلِ المدينة، قال علي بنُ عبد الله المديني: «كان سعدُ بنُ إبراهيم لا يُحدِّثُ بالمدينة، فلذلك لم يَكتُبْ عنه أهلُ المدينة»[53].

وسبب إبائه رَحِمَهُ اللهُ لرَأيٍ رآه: وهو استياؤه منهم على تَركهم البُغاةَ يَقتُلونَ عثمان رضي الله عنه، قال شعبة رَحِمَهُ اللهُ: «ما رأَيتُ رجلاً أَوْقَعَ في رجال أهل المدينة من سَعد بن إبراهيم، ما كنتُ أَرفَعُ له رجلاً منهم إلاَّ كذَّبَه، فقلتُ له في ذلك، فقال: «إنَّ أهلَ المدينة قتلوا عثمان»[54]، فعلى هذا ـ وبغَضِّ النَّظر في صحَّة أو خطإ ما رآه ـ يكون هو رَحِمَهُ اللهُ مَنْ رَفَضَ التَّحديثَ وليس لأنَّ أهلَ المدينة رفضوه! كيف وقد روى عنه نُقَّادُ الأئمَّة على رأسهم شُعبَةُ والثَّوري وابنُ عُيَيْنَة وغيرُهم، ومع روايتهم له قد وثَّقوه وقَبلُوه، نعَمْ روايَتُهم له خارجَ المدينة بواسط ومكَّة وغيرهما، ولكن ليس المرادُ اتِّفاقَ أهلِ المدينة على ترك الاحتجاج به كما توهمُ عبارةُ الباجي رَحِمَهُ اللهُ، يبيِّنُ ذلك:

خامسًا: أنَّ أهلَ المدينة لم يُطبِقُوا على ترك الرِّواية عن سعد رَحِمَهُ اللهُ، بل قد روى عنه كبارُ علماء المدينة، وهذه أسماء بعضهم مع ذكر روايَتهم في «الصَّحيحَيْن»:

1 ـ عالمُ المدينة في زمانه وهو يحيى ابنُ سعيد الأنصاري، وقد روى عنه البخاري في كتاب الوضوء، باب المسح على الخفَّين: (182)، ومسلم في الطهارة: (274).

2 ـ الإمامُ المُفتي الكبيرُ أبو عبد الله عبدُ العزيز ابنِ عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المدني الفقيه، روى عنه البخاري في المغازي: (4421).

3 ـ الإمام المُحدِّث أبو محمَّد عبد الله ابنُ جعفر ابنِ عبد الرحمن بن المِسوَر ابن مَخرَمَة ـ صاحبِ النَّبيِّ ﷺ ـ الزُّهري المَخرَمي المَدني، روى عنه مسلم في الأقضية (8 ـ باب نقض الأحكام الباطلة وردُّ مُحدَثات الأمور): (1718).

4 ـ الإمامُ القدوةُ، الصَّادقُ، بقيَّةُ الأعلام محمَّدُ ابنُ عجلان أبو عبد الله القُرَشي، المدني[55]، روى عنه مسلم ـ في المتابعات ـ في فضائل الصَّحابة، (2 ـ باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه): (2398).

5 ـ الإمامُ الحافظُ يزيدُ بنُ عبد الله ابن أُسامَةَ بن الهاد أبو عبد الله اللَّيثي، المدني، روى عنه مسلم في الإيمان، (38 ـ باب بيان الكبائر وأكبرها): (90).

فرواية هؤلاء وغيرهم يَخرقُ دعوى إطباقِ أهل المدينة على عدم الرِّواية عن قاضيها سعد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ.

---

(46) «شرح علل التِّرمذي» (2/ 781).
(47) «سير أعلام النُّبلاء» (8/ 71).
(48) «الثِّقات» (7/ 382).
(49) «شرح علل التِّرمذي» (2/ 781).
(50) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1249).
(51) «تهذيب التَّهذيب» (1/ 689. 690).
(52) «إكمال تهذيب الكمال» لمُغْلَطاي (5/ 225).
(53) انظرْ هذه الآثار: «الجرح والتَّعديل» لابن أبي حاتم الرَّازي (4/ 97).
(54) «تاريخ دمشق» (20/ 223)، وانظرْ «أخبار القضاة» (ص112).
(55) وفي «تهذيب الكمال» للمِزِّي (26/ 102) عند ذكر من روى عنه ابنُ عجلان: سعيد بن إبراهيم وهو تصحيف، والصَّوابُ سعد، وانظر: «سير أعلام النُّبلاء» (6/ 317).

وقال العلاَّمةُ الباجي رَحِمَهُ اللهُ: «والظَّاهرُ أنَّ أهلَ المدينة إنَّما اتَّفقُوا على تَركِ الأخذ عنه: إمَّا لأنَّه قد طَعَنَ في نَسبِ مالك طعنًا استَحَقَ به عندهم التَّركَ، وقد تركَ شُعبَةُ الرِّوايةَ عن أبي الزُّبَير المكِّي، ولا خلافَ أنَّه أَحفَظُ من سَعد بن إبراهيم وأكثرُ حديثًا، وجرَّحه بأن قال: رَأيتُه وَزَنَ فأَرْجَحَ، وطَعنُ سعد في نَسبِ مالك أعظَمُ إثمًا، مع ما يَختَصُّ به من وجوب الحدِّ الَّذي يَمنَعُ قبولَ الشَّهادة»(56).

والقولُ في هذا الكلام من وَجهَين:

أوَّلاً: قول شعبةَ رَحِمَهُ اللهُ في أبي الزُّبير من جملة ما يُنسَبُ بسببه شعبةُ إلى التَّشدُّد، فإنَّ هذا الكلام لا يَستَوجِبُ الطَّعنَ فيه، أو ردَّ رواياته، ولذا قال ابنُ حبَّان: «ولم يُنصِفْ مَنْ قدح فيه؛ لأنَّ من استرجح في الوزن لنَفسِه لم يَستَحِقَّ التَّركَ من أجله»(57)، ولهذه القصَّة نظائر، وقد عقد الخطيبُ البغدادي بابًا ترجمه بـ: «باب ذكر بعض أخبار مَن استُفسِرَ في الجرح فذكرَ ما لا يُسقِطُ العدالةَ» وممَّا أورد فيه ما رواه بإسناده عن أبي عبيدة الحدَّاد قال ثنا شعبة يومًا عن رجل بنحو من عشرين حديثًا، ثمَّ قال: امْحُوها، قال: قلنا له: لمَ؟ قال: ذَكرْتُ شيئًا رَأيْتُه منه، فقلنا: أَخبِرْنا به، أيُّ شَيء هو؟ قال: «رَأيْتُه على فرسٍ يَجري مِلءَ فُرُوجِه»(58).

ثانيًا: الَّذي يَظهَرُ من كلام الأئمَّة أنَّ سعدًا أَرضَى عندهم من أبي الزُّبَير، وأبو الزُّبير مُحمَّدُ بنُ مُسلم وإن كان أكثرَ حديثًا؛ فإنَّ سعدًا أَوثَقُ عندهم، ولا أدلَّ على ذلك أنَّ كثيرًا من الأئمَّة وهَّنُوا أبا الزُّبَير، ومن ذلك ما قاله عبد الله ابنُ

(56) «التَّعديل والتَّجريح» (3/ 1246).
(57) «الثِّقات» لابن حبَّان (5/ 352).
(58) «الكفاية» (1/ 343).

أحمد عن أبيه قال: «كان أيُّوب يقول: حدَّثنا أبو الزُّبير وأبو الزُّبير أبو الزُّبَير، قال: قلتُ لأبي: يُضعِّفُه؟ قال: نعم».

وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن عيينة يقول: حدثنا أبو الزبير وهو أبو الزبير أي كأنه يضعفه.

وقال نُعَيمُ بنُ حمَّاد: سمعتُ هُشَيمًا يقول: سمعتُ من أبي الزُّبَير فأخذَ شُعبَةُ كتابي فمَزَّقَه(59).

وأمَّا سعدٌ فلم يُضعِّفْه أحدٌ! بل الاتِّفاقُ على تَوثيقه، قال زكريَّا السَّاجي في سعد: «أجمعَ أهلُ العلم على صِدقه، وقد روى مالك عن عبد الله بن إدريس عن شعبة عنه، فصحَّ أنَّه حُجَّةٌ باتِّفاقهم، قال: ومالك إنَّما لم يَرْوِ عنه لمعنى مَعرُوف فأمَّا أن يكون تكلَّمَ فيه فلا أحفظ ذلك»(60)، وقد نقل ابنُ رجب الاتِّفاقَ على ذلك فقال رَحِمَهُ اللهُ: «وهو ثقةٌ جليلٌ مُتَّفقٌ عليه»(61)، وكذلك حكاه الشَّوكاني فقال: «سعد ابنُ إبراهيم قد اتَّفقَ الأئمَّةُ على تَوثيقه»(62).

ثمَّ هذا شعبةُ الَّذي نَقَلَ الباجي غَمزَه وتَركَه لأبي الزُّبَير، ثبت عنه ثناؤُه بالجميل على سعد بن إبراهيم، فقد روى ابنُ عساكر عن حجَّاج بن محمَّد قال: «كان شعبة إذا ذكر سعد بنَ إبراهيم قال: حدَّثني حبيبي، قال: وكان سعد يصوم الدَّهرَ ويَختِمُ القرآنَ في كلِّ يوم وليلة»(63)، وعن شعبة قال: «كتب عنِّي سعدُ بنُ إبراهيم حديثي كلَّه»(64).

فقول الباجي رَحِمَهُ اللهُ: «فعندي أنَّه ليس بالحافظ وقد أغرب بما لا يحتمله عندي حاله مع قلَّة حديثه، ولعلَّ ذلك كان من قلَّة حفظه» يُعتَبَرُ قولاً شاذًّا لم يُسبَقْ إليه أبو الوليد رَحِمَهُ اللهُ، والله أعلم.

(59) انظرْ هذه الآثار في «تهذيب التَّهذيب» (3/ 694).
(60) «فتح الباري» (2/ 486)، «تهذيب التَّهذيب» (1/689)، وممَّا يجدرُ التَّنبيه عليه أنَّ الباجي رَحِمَهُ اللهُ لمَّا ترجَم لأبي الزُّبَير اكتفى بذكر توثيق ابن معين له فقط، انظر: «التَّعديل والتَّجريح» (2/ 698).
(61) «شرح علل التِّرمذي» (2/ 782).
(62) «نيل الأوطار» (4/ 397).
(63) سبق ذكره.
(64) «تاريخ الإسلام» (8/ 112).

فهذا ما أردتُ بيانَه من كلام الإمام أبي الوليد الباجي رَحِمَهُ اللهُ، مع ذكرِ منزلة قاضي المدينة: سعد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ بين العلماء، وإبراز مَقامه بين المُحدِّثين الفضلاء رحمهم الله جميعًا، ورَفَعَ قَدرَهم بمَنِّه وكَرَمه، وأَختِمُ الكلامَ بقَولَين لسَعد بن إبراهيم:

1 ـ عن مِسعَر أنَّ سعدَ بنَ إبراهيم سئل: مَنْ أَفقَه أهلِ المدينة؟ قال: «أتقَاهُم لربِّه عز وجل»(65).

2 ـ وقال سعدُ بنُ إبراهيم: «لا يُحدِّث عن رسول الله ﷺ إلاَّ الثِّقاتُ»، قال سفيان عَقيبَ هذه الحكاية: «وكان سعد شديدَ الأَخذ»(66).

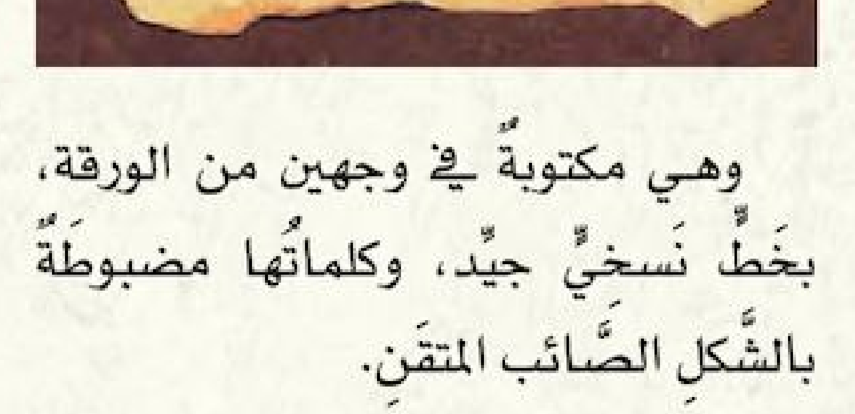
وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أَشهَدُ أن لا إله إلاَّ أنتَ أستغفرُك وأتوبُ إليك.

(65) «تاريخ دمشق» (20/ 218).
(66) أورد الأثر مسلم في مقدمة صحيحه، باب في أن الإسناد من الدين (1/ 13)، وانظر: «تاريخ دمشق» (20/ 218)، «تاريخ الإسلام» (8/ 112).





قصيدةٌ في ختم قراءة «صحيح البخاريِّ»



للشَّيخ الحافِظِ الإمَام

شهابِ الدِّين أبي محمود أحمد بن محمَّد بن إبراهيم المقدسيِّ

(ت 765هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ

قرأها وعلق عليها: خالد حمودة

مرحلة الماستر ـ جامعة الجزائر

إنَّ ممَّا دأبت عليه أجيالُ هذه الأمَّة المحمَّديَّة المفضَّلة حفظًا لدينها واستيثاقًا لسُنَّة نبيِّها ﷺ قراءةَ الكتب في المجالس الجامعة، وتسميعَها للطُّلَّاب، وإفادَتها للعلماء، وهذا ـ زيادةً على ما فيه من حفظ أنساب الكتب والثِّقة بنسبتها إلى أصحابها ـ فيه حفظٌ للمتعلِّم من الزَّلل ومداخلِ الخَلَل، بتلقِّيه للعلم من أفواه أهله المتقنينَ له.

وممَّا كان عليه العملُ عند قراءة الكتب: كتابةُ طبقة السَّماع، والإجازةُ برواية الكُتبِ المسموعة أو المقروءة، وربَّما ألَّف بعضُ العلماء بعد الفراغ من قراءة الكتاب كتابًا يذكُر فيه شيئًا عن المؤلِّف، وعن منزلة الكتاب وما قيل فيه وبيان شرطه وطريقة صاحبه فيه، وعُرِف هذا النَّوع من التَّصنيف بـ«الأختام» أو «كتب الخَتْم»، ومن أشهر من كَتَبَ فيه السَّخاوي وعبد الله بن سالم البصري رحمهما الله.

وقصيدةُ الحافظ أبي محمود المقدسيِّ هذه الَّتي بين يديك منتظمةٌ في هذا السِّلك، جاريةٌ في هذا المضمار، لأنَّه بعد أن فرغ من تسميع «صحيح البخاريِّ» نظمَ فيه هذه القصيدة الجميلة، وهي خمسون بيتًا من بحر الكامل، تضمَّنت بعضًا من مزايا «صحيح البخاريِّ» ومنزلته، وما تضمَّنه من الكُتب، وبيانَ شيء من حال الإمام البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مع أشياء أخرى.

وقد عثرتُ عليها في آخر الجزء الأوَّل من «مشكل الصَّحيحين» للعصَّاري رَحِمَهُ اللَّهُ[1] (لوحة: 130)، وهو محفوظٌ في مكتبة «كوبرويلي» بإسطنبول برقم (334).

وقد ذَكَر ناسخُه ـ واسمه عمر ابن خليل التَّنوخي[2] ـ أنَّه فرغ من الجزء الأوَّل منه في رمضان سنة (757)، ومن الثَّاني في المحرَّم سنة (758)، فيكون كتب هذه القصيدة هناك فيما بين هذين التَّاريخين.

وهي مكتوبةٌ في وجهين من الورقة، بخطٍّ نَسخيٍّ جيِّد، وكلماتُها مضبوطَةٌ بالشَّكلِ الصَّائب المتقَن.

■ تعريفُ بالنَّاظم:

هو شهاب الدِّين أبو محمود أحمد ابن محمَّد بن إبراهيم بن هلال بن تميم ابن سرور الخوَّاصيُّ المقدسيُّ الشَّافعيُّ.

يقال له الخوَّاصيُّ لأنَّه من ذريَّة إبراهيم الخواصِّ فيما قيل.

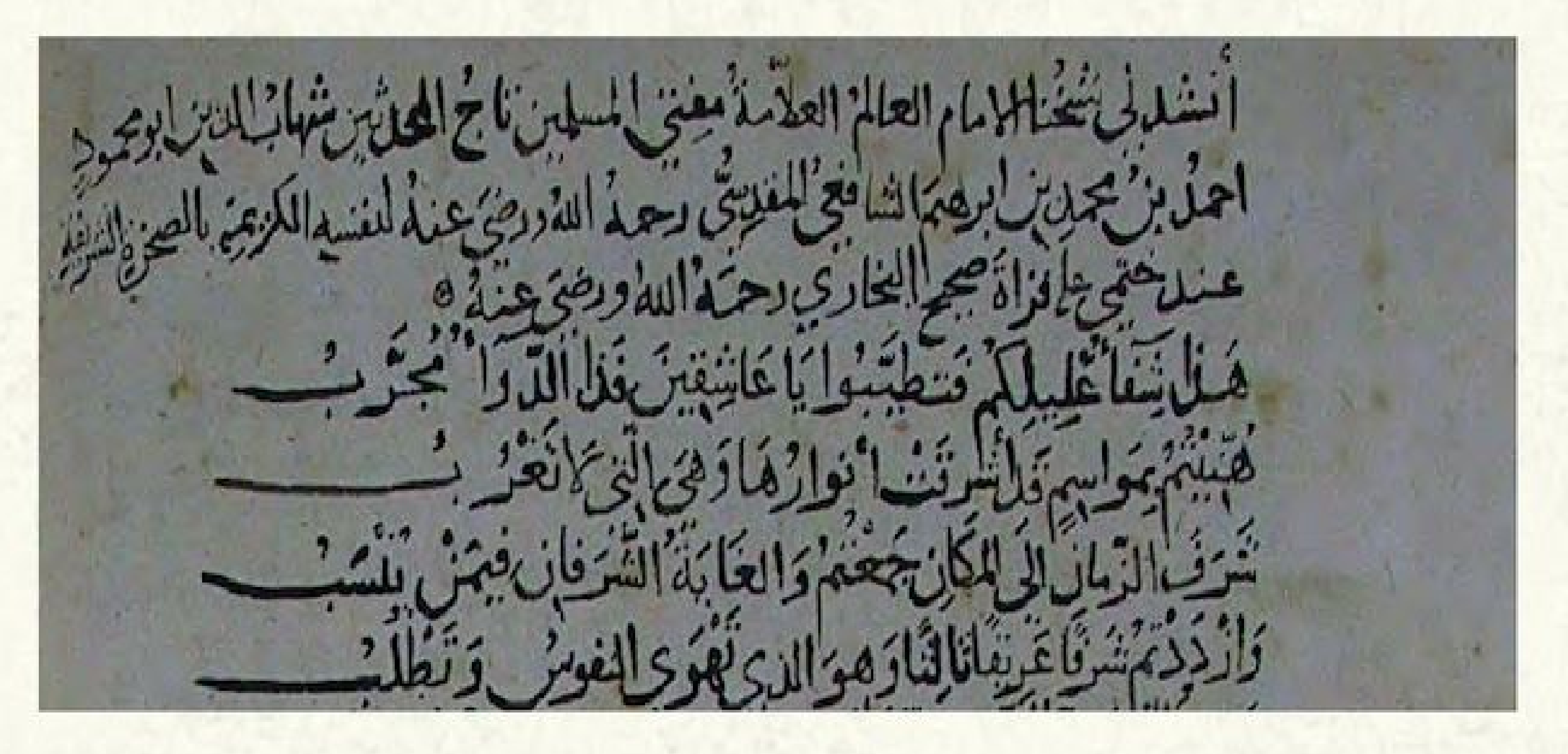
ذكره الحافظ الذَّهبيُّ في «المعجم المختصِّ» (33/1) وحلاه بـ «الإمام العالم المحدِّث».

ولد سنة (714)، وعُنِيَ بالحديث، وسمع الكثير من أصحاب ابن عبد الدَّائم وابن علاق والنَّجيب، فجمع وضبط، وبرع ورحل وأفاد، وصار رُحْلَة للطَّالبين.

درَّس بعد الحافظ العلائي بدار

(1) واسمُه أبو محمَّد عبد العزيز، لم أقف له على ذكر، وقد وصف في ديباجة الكتاب بـ«الشَّيخ الصَّالح المحدِّث الثِّقة».

(2) لم أجد له ذكرًا أيضًا.



أنشدني شيخنا الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين تاج المحدثين شهاب الدين أبو محمود
أحمد بن محمد بن ابرهيم الشافعي المقدسي رحمه الله ورضي عنه لنفسه الكريمة بالصخرة الشريفة
عند ختمي على قراءة صحيح البخاري رحمه الله ورضي عنه
هذا شفا عليلكم فتطببوا يا عاشقين فذا الدوا مجرب
هنيتم بمواسم قد أشرقت أنوارها وهي التي لا تغرب
شرف الزمان إلى المكان جمعتم والغاية الشرفان فيمن ينسب
وازددتم شرفا غريبا نائلا وهو الذي تهوى النفوس وتطلب

الحديث التَّنكزية، وشرع في شرح «سنن أبي داود»، وله «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشَّام» وهو مطبوعٌ، وقصيدةٌ في المدلِّسين مشهورةٌ منشورة، وله غير ذلك.

ومن حُسْنِ سيرته وسَيْرِه على طريقة السَّلف في الأخذِ عن الصَّغير والكبير ما ذكره الحافظ العراقي في شرحه على «ألفيَّته» في الحديث (2/19)، قال: «وقد سمع منِّي صاحبُنا العلَّامة أبو محمود محمَّد بن إبراهيم المقدسيُّ[3] ولي عشرون سنةً، سنةَ خمسٍ وأربعين»[4]، والعراقيُّ أصغرُ منه بإحدى عشرةَ سنةً، فإنَّه ولد سنة (725).

توفِّي الشِّهابُ المقدسيُّ رحمه الله وغفر له سنة (765)[5].

■ نصُّ القصيدة:

أنشدني شيخُنا الإمامُ العالمُ العلَّامة، مفتي المسلمين، تاج المحدِّثين، شهابُ الدِّين أبو محمود أحمد بن محمَّد ابن إبراهيم الشَّافعيُّ المقدسيُّ ـ رحمه الله ورضي عنه ـ لنفسه الكريمة، بالصَّخرة الشَّريفة، عند ختمي على[6] قراءةَ «صحيحِ البخاريِّ». رحمه الله ورضي عنه ـ:

هَـذا شِـفَـاءُ عَـلِيلِكُمْ فَـتَطَيَّبُوا ... يَـا عَـاشِقِينَ فَـذَا الـدَّوَاءُ مُجَرَّبُ

هُنِّيتُمُ بِمَواسِمٍ قَـدْ أَشْـرَقَتْ ... أَنْـوَارُهَـا وَهِـيَ الَّتِي لَا تَغْرُبُ

شَرَفَ الزَّمَانِ إِلَى المَكَانِ جَمَعْتُمُ ... وَالغَايَةُ الشَّرَفَانِ فِيمَنْ يُنْسَبُ

وَازْدَدْتُمُ شَرَفًا عَرِيقًا ثَالِثًا ... وَهُوَ الَّذِي تَهْوَى النُّفُوسُ وَتَطْلُبُ

سَرْدُ البُخَارِيِّ الصَّحِيحِ مُبَيَّنًا ... قَدْ شَنَّفَ الأَسْمَاعَ مِنْهُ المُطْرِبُ

مُذْ بَدْؤُهُ الإِخْلَاصُ كَانَ خِتَامُهُ الْـ ... ـمِسْكُ المُفَتَّقُ[1] وَالرَّحِيقُ الطَّيِّبُ

مَنْ قَالَ مَا فِي المَشْرِقَيْنِ وَمَغْرِبٍ ... مِثْلُ البُخَارِي صِحَّةً لَا يَكْذِبُ

جَمَعَ المَحَاسِنَ كُلَّهَا تَرْصِيفُهُ ... فَغَدَا عَلَى كُلِّ المَسَانِدِ يُغْرِبُ

يَا حُسْنَ أَبْوَابٍ وَشَاهَا رَقْمُهُ ... فَلِذَاكَ أَخْبَارٌ لَدَيْهَا يُحْجَبُ[2]

هُوَ أَوَّلُ الكُتُبِ الصِّحَاحِ مُصَنَّفًا ... فِي الأَرْضِ وَهْوَ مُحَرَّرٌ وَمُهَذَّبُ

لَقَدِ اكْتَسَى حُلَلَ الْجَمَالِ بِأَسْرِهَا ... مَا فِيهِ إِلَّا مُعْلَمٌ أَوْ مُذْهَبُ[3]

قَدْ قَالَ مَا أَدْخَلْتُ فِيهِ سِوَى الَّذِي ... قَدْ صَحَّ لَا كُلًّا لِيَدْنُو المَطْلَبُ[4]

قَالَ النَّبِي لِلْمَرْوَزِي[5] فِي نَوْمِهِ: ... «أُدْرُسْ كِتَابِي ذَا» فَهَذَا المَنْقَبُ[6]

وَعَنِ البُخَارِي أَنَّنِي صَنَّفْتُهُ ... فِي سِتَّ عَشْرَةَ حِجَّةً إِذْ تُحْسَبُ

وَجَعَلْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِلَهِنَا ... لِي حُجَّةً فَهِيَ الَّتِي لَا تُغْلَبُ

سِتُّ مِئٍ[7] أَلْفُ حَدِيثٍ أَصْلُهُ ... لَا بِالمُخِلِّ أَتَى وَلَا هُوَ مُسْهِبُ

مَا مِنْ حَدِيثٍ فِيهِ إِلَّا قَبْلَهُ ... صَلَّى بِغُسْلٍ عِنْدَ مَا هُوَ يَكْتُبُ

وَبِرَوْضَةٍ مِنْ طَيْبَةٍ قَدْ حَوَّلَتْ ... هَذِي التَّرَاجِمُ فَالرَّوَائِحُ زَرْنَبُ[8]

سِيَرُ[9] الرَّسُولِ حَوَى مَعَ أَحْكَامِهِ ... وَمَكَارِمَ الأَخْلَاقِ يَا مُتَأَدِّبُ

وَفَضَائِلَ الأَمْلَاكِ ثُمَّ الأَنْبِيَا ... وَمَنَاقِبَ النُّجَبَاءِ مِمَّنْ يَصْحَبُ

وَمَعَ كَرَامَاتٍ وَذِكْرِ مَعَارِفٍ ... وَشِفَاءِ مَنْ فِي عِيِّهِ يَتَقَلَّبُ

وَمَعَ ثَوَابِ الجِنِّ ثُمَّتَ[10] ذِكْرَ إِبْـ ... ـلِيسَ اللَّعِينِ وَجُنْدِهِ فَتَجَنَّبُوا

وَلَقَدْ حَوَى ذِكْرَ الجَحِيمِ وَجَنَّةٍ ... هِيَ مِنْ شِرَاكِ النَّعْلِ مِنَّا أَقْرَبُ[11]

مَعَ ذِكْرِ بَعْثٍ وَالصِّرَاطِ وَنَعْتِ مَا ... هُوَ عَنْ عُيُونِ العَالَمِينَ مُغَيَّبُ

وَلَكَمْ بِهِ مِنْ طُرْفَةٍ حَيِّ[12] بِهَا ... شَهْمًا بِذِهْنٍ لِلْمَعَانِي يَثْقُبُ

حَلَّاهُ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِجُمْلَةٍ ... مَعَ ذِكْرِ تَفْسِيرِ الَّذِي يُسْتَغْرَبُ

---

(3) كذا هو في المطبوع، وكذا رأيتُه في أصلين خطِّيَّين موثوقَيْن، أحدهما بخطِّ البقاعي صاحب «المناسبات»، والأخرى بخطِّ تلميذه الشَّيخ أبي الحسن عليِّ بن محمَّد المحليِّ المعروف بابن قُرَيبَة، وكَتَبَ ابن قُرَيبَة على هذا الموضع: «صوابُه: أحمد بن محمَّد ابن إبراهيم بن هلال».

(4) «شرح التَّبصرة والتَّذكرة» (2/ 20ـ21).

(5) ترجمتُه في «المعجم المختصِّ» للذَّهبي (1/ 33)، و«لحظ الألحاظ» لابن فهد (148)، و«الدُّرر الكامنة» لابن حجر (1/ 242)، و«الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل» لمجير الدِّين العليمي (25/ 157ـ158)، و«الأعلام» للزِّركلي (1/ 224).

(6) كذا هي في الأصل واضحة، ولعلَّها «عليه»، بدلالة أنَّه ضبط كلمة «قراءة» بعدها بالنَّصبِ على أنَّه مفعولٌ لـ«ختمي».

فَلِذَا غَدَا أُسْلُوبُهُ فِي بَابِهِ فَرْدًا فَسَالِكُ ذِي المَحَجَّةِ يُسْلَبُ
وَغَدَتْ قِرَاءَتُهُ أَمَانًا لِلْوَرَى مِنْ شِدَّةٍ فَجِيئَتْ إِلَيْهَا يُرْغَبُ[13]
وَالسِّرُّ فِيهِ ذَا الَّذِي بَرْهَنْتُهُ وَصَلَاحُ جَامِعِهِ الَّذِي لَا يَعْجَبُ[14]
لله دَرُّكَ مِنْ إِمَامٍ أَوْحَدٍ يَا نَجْلَ إِسْمَاعِيلَ أَنْتَ مُرَجَّبُ[15]
مَا اغْتَبْتَ طُولَ الدَّهْرِ مِنْ أَحَدٍ[16] وَلَمْ تَشْرِ وَلَمْ تَبْتَغْ وَأَنْتَ مُدَرَّبُ[17]
وَأُرِيتَ أَنَّكَ وَاقِفٌ عِنْدَ النَّبِي بِيَدَيْكَ مَرْوَحَةٌ تَذُبُّ فَتُرْغَبُ[18]
فَسَأَلْتَ عَابِرَهَا فَقَالَ تَذُبُّ عَنْ خَيْرِ البَرِيَّةِ مَنْ عَلَيْهِ يَكْذِبُ
وَقَدِ اسْتَوَى المَدَّاحُ عِنْدَكَ وَالَّذِي قَدْ ذَمَّ مِنْكَ مَتَى نَخَالُكَ تَغْضَبُ
قَالَ الفِرَبْرِي[19] قَدْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا فِي النَّوْمِ خَاطَبَنِي إِلَى مَنْ تَذْهَبُ
قُلْتُ البُخَارِي القَصْدُ قَالَ فَأَقْرِهِ مِنِّي السَّلَامَ وَذِي التَّحِيَّةُ تَعْذُبُ
وَرُئِي البُخَارِي فِي المَنَامِ وَكُلَّمَا رَفَعَ النَّبِي قَدَمًا بِرِجْلٍ يُعْقِبُ[20]
عَنْ أَلْفِ شَيْخٍ قَدْ رَوَى وَزِيَادَةٍ[21] جَابَ البِلَادَ فَشَرْقُهَا وَالمَغْرِبُ
مِائَةً مِنَ الآلَافِ حِفْظًا قَدْ وَعَى صَحَّتْ وَمِثْلَيْهَا ضَعِيفًا يُجْنِبُ
حَبْرُ الصِّنَاعَةِ كُلُّهُمْ لَكَ مُذْعِنٌ وَلِمَا جَمَعْتَ وَفِي ثَنَائِكَ مُطْنِبُ[22]
فَجَزَاكَ رَبُّ العَالَمِينَ عَلَى الَّذِي أَوْدَعْتَ فِينَا مَا تَرُومُ وَتَطْلُبُ[23]
يَا رَبِّ قَدْ قُرِئَ البُخَارِي كُلُّهُ وَتُلِي كِتَابُكَ وَالمَكَانُ فَطَيِّبُ
وَالجَمْعُ صُوَّامٌ عُكُوفٌ كُلُّهُم يَرْجُو الرِّضَى وَالعَفْوَ عَمَّا يَكْسِبُ
فِيهِمْ شَبَابٌ خُشَّعٌ وَمَشَايِخٌ لَكَ رُكَّعٌ بِجُفُونِ عَيْنٍ تَسْكُبُ
يَا رَبِّ مَا ذَنْبُ المُسِيءِ وَجَهْلُهُ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ فَالمَرَاحِمُ أَغْلَبُ
يَا رَبِّ هَذَا جُهْدُنَا فَاغْفِرْ لَنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ فَلَيْسَ مِنْهُ مَهْرَبُ
هَاذِي العِبَادُ تَنَصَّلُوا وَجَمِيعُهُمْ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ يُحِيلُ وَيَرْهَبُ[24]
لَا تَجْعَلِ العَبْدَ الحَقِيرَ لِرَدِّهِمْ سَبَبًا فَيَا رُزْءَ الفَتَى إِنْ خُيِّبُوا
وَبِجَاهِ أَحْمَدَ قَدْ تَمَسَّكَ كُلُّنَا يَوْمًا يَفِرُّ مِنَ القَرِيبِ الأَقْرَبُ[25]
صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ رَبُّ السَّمَا وَصِحَابِهِ مَا هَبَّ رِيحٌ أَزْيَبُ[26]

تمَّت، والحَمْد لله ربِّ العَالمِين

(1) المِسْكُ المفتَّقُ هو الَّذي يُشقُّ فيُدخل فيه غيرُه لتُستخرَج رائحتُه، انظر لذلك: «المخصَّص» لابن سِيدَه (11/ 200 ـ 204)، و«لسان العرب» (10/ 298).

(2) أبوابُ «صحيح البخاريِّ» مرقومةٌ في الكتاب على حَسَبِ المعاني واستخراج الأحكام فلذلك يعسُر الوقوف عليها في أماكنها فيه، وقد نقل الحافظ السَّخاويُّ في كتابه «غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجَّاج» (42 ـ 43) عن النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ من خطِّه قولَه ـ بعد أن ذكر أنَّ مسلمًا يجعل لكلِّ حديث موضعًا واحدًا يجمع فيه طرقه فلذلك هو أقربُ تناولاً ـ: «وهذا بخلاف «صحيح البخاريِّ» فإنَّه لا يتوصَّل إلى غرضه منه إلاَّ النَّادر من الحفَّاظ، المعتنين بمعرفة مظنَّة المعاني والألفاظ، الَّذين مارسوه دهرًا ودرسوه سرًّا وجهرًا، وأنَّى لطالب لذلك جمع طرقه المتباعدة، وحصول الثِّقة لمن يبتغي فرائده! ولعمري لقد غلط جماعة من الأئمَّة فنفوا رواية البخاريِّ عن أحاديث هي موجودة فيه، وما ذاك إلاَّ أنَّه ذكر أحاديث من كتابه في غير مظنَّتها الظَّاهرة لغرض يبتغيه» اهـ.

(3) المُعْلَمُ الَّذي جُعلت فيه الأعلام الجميلة، والمُذْهَبُ هو المَطْليُّ بالذَّهب، وكلاهما عبارةٌ عن التَّزيين المناسب لوصف «الصَّحيح» بأنَّه اكتسى حُلَلَ الجمالِ.

(4) قوله: «ليدنو المطلَب» متعلِّقٌ بـ«ما أدخلت» أي: إنَّه لم يدخل فيه كلَّ ما صحَّ عنده من الحديث، ولكن ترك منه ما ترك تسهيلًا لمن يريد أن يقف على الحديث الصَّحيح.

وقد كتَبَ النَّاسخ «يدنو» بالألف بعد الواو، فحذفتها لموافقةِ الرَّسم المتَّبع وزيادتها توهم الجمع.

(5) هو محمَّد بن أحمد بن عبد الله الفقيه، أبو زيد المروزيُّ الزَّاهد، قال الخطيب: «كان أحد أئمَّة المسلمين، حافظًا لمذهب الشَّافعيِّ، حسنَ النَّظر، مشهورًا بالزُّهد والورع»، وهو راوي «صحيح البخاريِّ» عن الفربري، بل قال الخطيب: «إنَّه أجلُّ من رواه»، توفِّي سنة (371)، ترجمته في «تاريخ بغداد» (2/ 154).

قال أبو زيد: كنتُ نائمًا بين الرُّكن والمقام، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام فقال لي: «يا أبا زيد! إلى متى تدرس كتاب الشَّافعيِّ ولا تدرس كتابي»؟ فقلت: «يا رسول الله! وما كتابك»؟ قال: «جامع محمَّد بن إسماعيل» [«سير أعلام النُّبلاء» (16/ 314)].

(6) المَنْقب كمَنْكِب، مفرد المناقب، يقول إنَّ هذه هي المنقبة العليا الَّتي ترنو الأفئدة ذواتُ الهمم إلى مثلها، فالألف واللَّام فيه للعهد الذِّهنيِّ، تفخيمًا له من بين سائر المناقب، وهو كقول أبي الصَّلت بن أبي أميَّة في ثأر ذي يزن الحميَري من الأحابيش:

تِلْكَ المَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ
شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

(7) أصل هذه الكلمة «ستُّ مِئِينَ»، فحذف ورخَّم، كقول مُزَرِّد:

وَمَا زَوَّدُونِي غَيْرَ سَحْقِ عِمَامَةٍ
وَخَمْسِ مِئٍ مِنْهَا قَسِيٌّ وَزَائِفُ

انظر: «تهذيب اللُّغة» للأزهريِّ (6/ 2489)، والإشارة بالبيت وبالبيتَيْن قبلَه إلى قول البخاريِّ رَحِمَهُ اللهُ: «صنَّفتُ الجامع من ستِّمائة ألف حديث، في ستَّ عشرةَ سنة، وجعلته حجَّةً فيما بيني وبين الله» [«تاريخ بغداد» (2/ 333)، «هدي السَّاري» (489)].

(8) الزَّرنَب، هو نوعٌ من أنواع الطِّيب معروفٌ، وفي حديث أمِّ زرع: «زوجي الرِّيح ريحُ زَرْنَب»، ومضمونُ البيت ما قال عبد القدُّوس بن همَّام: «سمعت عِدَّةً من المشايخ يقولون: حوّل تراجم جامعه بين قبر النَّبيِّ ﷺ ومنبره» [«تاريخ بغداد» (2/ 327)].

(9) ضَبَطَها النَّاسخ بسكون الياء، وأصلُها «سِيَر» بفتحها، جمع سِيرة، كما تقول: عِبَر جمعُ عِبرة، وفِكَر جمع فِكرة، والوزن مستقيمٌ بالفتح، ومستقيمٌ بالسُّكون، فتكون التَّفعيلة مضمرةً، وهو زحافٌ جائزٌ في بحر الكامل، إلَّا أنَّه لا حاجة إليه هنا، انظر: «الكافي في العروض والقوافي» للتَّبريزي (64).

(10) ضَبَطَها النَّاسخ بالسُّكون، والوزن مستقيمٌ بغير ذلك، والإسكان جائزٌ على أنَّ التَّفعيلة مضمرةٌ، إلَّا أنَّه لا حاجةَ إلى ذلك.

(11) كما صحَّ بذلك الحديث في البخاريِّ (3488) وغيره.

(12) هكذا هي من غير ضبط، فقد تُقرأ «حيَّ» بياء مشدَّدة مفتوحة، أي أنَّ البخاريَّ أحيا الشَّهمَ ثاقبَ الذِّهن بما أودعه في كتابه من الطُّرف، وقد تُقرأ «حيِّ» بياء مشدَّدة مكسورة فعلُ أمر من التَّحيَّة، أمَرَ بأن تَلقى الشَّهم ثاقبَ الذِّهنِ بطُرَفِ الصَّحيح.

(13) الضَّمير في «إليها» راجع إلى «قراءة»، والجملة «إليها يُرغب» بدلٌ من «أمانًا» أو عطفُ بيان منه، وهو أي: أمانًا ـ مفعولٌ ثانٍ لـ«غدت»، والمعنى أنّ قراءة «صحيح البخاريِّ» غدت أمانًا للنَّاس من الشِّدَّة، وغدت يرغب النَّاس إليها، ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإشكال، لأنَّ الفزع في النَّوائب والرَّغبة في كشفها ينبغي أن يكون لله الواحد الأحد لا إلى قراءة «صحيح البخاريِّ»، وقد ذكر جماعة من المتأخِّرين أنَّهم جرَّبوا أنَّه ما قُرئ في شدَّة إلاَّ انفرجت، ولا رُكب به في سفينة فغرقت، وهذا مع احتماله وكونه ليس كثيرًا على صحيح حديث النَّبيِّ ﷺ، إلَّا أنَّ هذا الباب بابُ عبادة موقوف على النُّصوص، فينبغي الوقوف معها حيث وقفت بالنَّاس.

(14) أي: لا يعجب بنفسه وعلمه وعمله، وكذلك كان البخاريُّ رحمه الله.

(15) أي معظَّم، ومنه سُمِّي الشَّهرُ الحرام، لأنَّ العرب كانت تعظِّمُه، وأشدُّهم له تعظيمًا مضر، فلهذا يُنسَب إليها، فيقال: «رجب مضر».

(16) قال ورَّاقُ البخاريِّ: سمعتُه يقول: «ما اغتبتُ أحدًا قطُّ منذُ علمت أنَّ الغِيبةَ حرامٌ»، وقال: «إنِّي لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنِّي اغتبتُ أحدًا» [«هدي السَّاري» (480)].

(17) يعني أنَّ تركك ـ يخاطب البخاريَّ ـ للبيع والشِّراء ليس عجزًا ولا لعدم معرفتك بوجوه التِّجارة، ولكن أنت مدرَّبٌ قادر عليها، تركتَها ورعًا واشتغالا بما هو أفضل منها وأجدى، وهو الاشتغال بحديث رسول الله ﷺ، قال ورَّاقه: سمعته يقول: «ما تولَّيتُ شراء شيءٍ قطُّ ولا بيعَه، كنتُ آمر إنسانًا فيشتري لي» قيل له: «ولم؟» قال: «لِمَا فيه من الزِّيادة والنُّقصان والتَّخليط» [«هدي السَّاري» (479)].

(18) وفي القصَّة أنَّ البخاريَّ بعد أن سأل العابر قال: «فهو الَّذي حملني على إخراج الجامع الصَّحيح» قال الحافظ في «هدي السَّاري» (7): «روِّينا ذلك بالإسناد الثَّابت».

(19) ضَبَطَهُ النَّاسخ بفتح الفاء وكَسرها، وكَتبَ فوقَها: «مَعًا»، إشارةً إلى صحَّة الوجهين، وبالوجهين ضبَطه القاضي عياضٌ وابن قرقول وغيرهما، انظر: «مطالع الأنوار» لابن قرقول (5/ 282 ـ 294)].

وهو محمَّد بن يوسف بن مطر الفرَبْرِيُّ، راوي «الجامع الصَّحيح» عن أبي عبد الله البخاريِّ، توفِّي سنة (320)، ترجمته في «سيَر أعلام النُّبلاء» (15/ 10).

(20) صاحب هذه الرُّؤيا هو النَّجم ابن الفضيل، ورآها أيضًا ورَّاقُه محمَّد ابن حاتم البخاريُّ، أسندها عنهما الخطيبُ في «تاريخ بغداد» (2/ 328).

(21) في «هدي السَّاري» (479) عن محمَّد بن حاتم أنَّه روى عن البخاريِّ أنَّه قال: «كتبتُ عن ألف وثمانين نفسًا ليس فيهم إلَّا صاحبُ حديث».

(22) وقد عقد الخطيب في «التَّاريخ» (2/336 ـ 352) فصولًا في ثناء أهل الأمصار عليه: البصريُّون، وأهل الحجاز والكوفة، والبغداديُّون، وأهلُ الرَّيِّ.

(23) «ما» مصدريَّة أو موصولة، وهي وما بعدها مفعولُ «جزاك»، يدعو له بأن يؤتيه الله ما يروم ويطلبُ كفاءَ ما أودع فينا من ذخائر العلوم ونفائسها.

(24) تنصَّلُوا من ذنوبهم، ويحيل كلٌّ واحد منهم على الآخر في الاستغفار لهم، لعلَّ الله أن يتقبَّل منه دعاءه.

(25) هذا إخبارٌ عن أنَّنا جميعا متمسِّكون بجاه النَّبيِّ ﷺ ومنزلته عند الله تعالى يوم القيامة وذلك أنَّه هو الَّذي يشفع للنَّاس حتَّى يُفصل القضاء بينَهم، وهو الذي يشفع في أمَّته، ومع ذلك فكان الأولى أن يعلِّق النَّاظم رجاءه ورجاء النَّاس في الله تعالى أن يُشَفِّع فينا نبيَّه ﷺ، فإنَّه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

(26) الرِّيح الأزيب النَّشِطُ المتحرِّك، قال ابن فارس في «مقاييس اللُّغة» (3/ 39): «الزَّاي والياء والباء أصل يدلُّ على خفَّة ونشاط، وما يشبه ذلك»، وقد استعمَل هذا اللَّفظ المجد الفيروزآبادي صاحب «القاموس» في رسالته المشهورة إلى السُّلطان لمَّا أراد المسيرَ إلى مكَّة، قال فيها: «فإنَّ الفصلَ أطْيَب، والرِّيح أزْيَب»، وهي في «الضَّوء اللَّامع» (10/ 84)، و«أزهار الرِّياض» (3/ 45).

■ ■ ■





أَيْنَ يَأْخُذُنَا الفَيْسَبُوكُ؟!

عمر تشيش
مرحلة الدكتوراه. جامعة تلمسان

أَمْسَى الخَيالُ بَديلاً عَنْ تَلاقِينا ... فَالفَيْسَبُوكُ، أُخَيَّ، اليَوْمَ يَكْفِينا

وَضَغْطَةُ الزِّرِّ حالَتْ دُونَ مَجْلِسِنا ... فَأَيْنَ دِفْءُ تَحِيَّاتٍ بِأَيْدِينا؟!

قَدْ كُنْتُ أَرْتَادُهُ حِينًا لِمَنْفَعَةٍ ... حَتَّى غَدا مِنْهُ بَعْضُ الشَّرِّ يَأْتِينا

هَذا مَقالٌ، وَهَذي شَرُّ تُرَّهَةٍ ... كَادَ اليَهُودُ لَنَا، فَلْيَبْكِ نَاعِينَا

هَرْجٌ، وَمَرْجٌ، وَذي الأَوْقاتُ ضائِعَةٌ ... وَتِلْكَ غَانِيَةٌ حَلَّتْ بِنَادِينَا

فَالقَلْبُ فِي غَفْلَةٍ، وَالعَيْنُ جاحِظَةٌ ... وَالسِّنُّ ضَاحِكَةٌ لِلَّغْوِ يُلْهِينَا

ضاعَتْ سُوَيْعاتُنا في غَيْرِ مَنْفَعَةٍ ... فَمَنْ يُعَاتِبُنَا، أَمْ مَنْ يُعَزِّينَا؟!

حادَتْ عَنِ الرَّكْبِ رَكْبِ الخَيْرِ ناقَتُنا ... يا لَيْتَ شِعْري، كَأَنَّ الذِّيبَ حادِينا

أَرَى اليَهُودَ غَزَوْنا في مَنازِلِنا ... مِنْ دُورِهِمْ، بِسِلاحٍ فَاتِكٍ فِينا

وَدِّعْ، خَليلي، كِتابًا كُنْتَ تَقْرَؤُهُ ... فَالعَقْلُ يَلْهُو بِهِ عِلْجٌ بِمَا شِينَا

ما عادَ لي شَغَفٌ، صَحْبِي، بِزُرْقَتِكُمْ ... إِنِّي أَحِنُّ إِلَى دَرْسٍ يُنَادِينَا

فَأَيْنَ قَوْلُكَ قَالُوا قَالَ حَدَّثَنا ... أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ خَيْرِ النَّبِيئِينَا؟

يا حَبَّذا الكُتْبُ كُتْبُ العِلْمِ مُؤْنِسَةً ... فَهَلْ تُرانا هَجَرْنا العِلْمَ قالِينا؟!

لا تَجْعَلِ الفَيْسَبُوكَ الدَّهْرَ مُفْتِيَنا ... فَإِنَّ مِنْ خَلْفِهِ جُنْدًا تُعَادِينَا

العِلْمُ دِينٌ، فَعَمَّنْ أَنْتَ آخِذُهُ؟! ... كَذا رُوِينا عَنِ الشَّيْخِ ابْنِ سِيرِينَا

هَذا سُؤَالي أَبا عَبْدِ المُعِزِّ، فَقَدْ ... عَمَّتْ بَلِيَّتُنَا: مَا حُكْمُهُ دِينا؟

أَرَى أَحِبَّتَنا في اللهِ جُلَّهُمُ ... صَرْعَاهُ يا شَيْخُ، هَلاَّ جِئْتَ تُفْتِينا

إِلَهَنا، رُمْتُ نُصْحًا بَعْدَ تَجْرِبَةٍ ... وَلاَ إِلَهَ سِوَاكَ اليَوْمَ هَادِينَا

فَلاَ تَكِلْنا إِلَى الأَهْوَاءِ في زَمَنٍ ... كَأَنَّنَا فِيهِ مِنْ أَسْرَى أَعَادِينَا

وَتُبْ عَلَيْنَا، وَهَبْنَا رَبِّ مَغْفِرَةً ... وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْدًا قَالَ: «آمِينَا»





نجيب جلواح



مَفاسد الإنترنت وأخطاره

إنَّ ما نعيشه اليوم مِن تَطوُّر مُذهلٍ في وسائل الاتِّصال، مِن أهمِّها وأبرزها «الإنترنت»، وهو سلاحٌ ذو حدَّين، بمعنى أنَّه بحسب ما يُبَثُّ فيه، ويُنشَرُ في صفحاته؛ فإنْ سُخِّر لتثبيت العقيدة الصَّحيحة في النُّفوس، ونشر العلم النَّافع، والدَّعوة إلى التَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة والقِيَم المُثلى، والتَّخلِّي عن الرَّذائل والعادات القبيحة: فنعمًّا هو وسيلة للتَّعليم والإصلاح، وإنْ وُظِّفَ لمحاربة الدِّين، وإفساد الأخلاق، وتدمير القِيَم، وتضييع الأعمار فيما يضرُّ ولا ينفع، كان بلاءً خطيرًا، وشرًّا مُستطيرًا.

■■■

وإنَّ هذه الشَّبكةَ مع ما فيها من منافعَ وفوائدَ لا تُنكر، إلاَّ أنَّ أضرارَها ومفاسدَها أكبر؛ بسبب سُوء استعمال كثير مِن مُرتادي هذه التِّقنية، الذين جعلوا النِّعمة نقمةً، والخير شرًّا، والتَّطوُّر وبالاً. ولا يُنكِر عاقلٌ أنَّ لهذه الشَّبكة فوائدَ إذا استُخدمت للعلم والإصلاح، ولكن للأسف الشَّديد أنَّ كثيرًا مِن الشَّباب - ذكورهم وإناثهم - لا يستخدمونها إلاَّ في الشَّرِّ والفساد، حتَّى تحوَّلت إلى ساحةٍ لتجارة الجنس، والتَّرويج للإباحيَّة، ونشرِ الرَّذيلة، والدَّعوة للمجون والخلاعة.

■■■

والقاعدة الفقهيَّة تقول: «الضَّرر يُزال»[1]، ومعنى ذلك: أنَّ الشَّريعة الإسلاميَّةَ ترعى مصالح النَّاس، وتحضُّ على إزالة كُلِّ ضرر ورفعه بعد وقوعه بشتَّى السُّبل وبكلِّ الوسائل المشروعة، ومِن باب أَوْلَى دفعه والوقاية منه قبل حدوثه، وهذا يرتبط بكلِّ ما استحدثه النَّاس في حياتهم[2].

ولهذا، فعلى المسلم أنْ يَعرف مَوضع الصَّلاح والفساد في كلِّ ما يأتي ويذر؛ ليُحقِّق الأوَّلَ ويعمل به، ويَدفع الثَّاني ويجتنبه.

قال العزُّ بنُ عبد السَّلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والشَّريعةُ كلُّها مصالح، إمَّا تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإنْ سمعتَ الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فتأمَّل وصيَّته بعد ندائه، فلا تجد إلاَّ خيرًا يحثُّك عليه، أو شرًّا يزجرك عنه، أو جمعًا بين الحثِّ والزَّجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام مِن المفاسد حثًّا على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام مِن المصالح حثًّا على إتيان المصالح»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الشَّريعةَ جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنَّها تُرجِّح خيرَ الخَيْرَيْن وشرَّ الشَّرَّيْن، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما»[4].

■■■

وفي هذا المقال حديثٌ عن بعض أخطار «الإنترنت»، والتَّحذير من مفاسده وأضراره، وبيان حَجم الإباحيَّة الموجودة فيه، فضلاً عن الدِّعاية للشُّذوذات الجنسيَّة، والأفكار الهدَّامة، ومذاهب

(1) انظر: «الأشباه والنَّظائر» (1/ 41) للسُّبكي، «الأشباه والنَّظائر» (ص72) لابن نجيم، «موسوعة القواعد الفقهيَّة» (1/ 229) للبورنو.

(2) انظر: «شرح القواعد الفقهيَّة» (ص179) للزّرقا.

(3) «قواعد الأحكام» (1/ 11).

(4) «مجموع الفتاوى» (20/ 48).

أهل البدع كالرَّافضة والخوارج والصُّوفيَّة والأشاعرة وغيرهم.

ولقد فُتن شبابُنا بـ «الإنترنت» كثيرًا، فتزايد عدد مُستخدميه بسرعة فائقة، وأُولعوا به ولعًا عظيمًا، حتَّى أضحى جُلُّ حديثهم عن ارتياد مواقعه، وتصفُّح جديده، والسَّهر معه السَّاعات الطِّوال دون كللٍ أو مللٍ، لذا لا نبعد لو سمَّيْناهم بـ «جيل الإنترنت».

ولقد انتبه الكُفَّار لإدمانٍ جديد ـ غير الإدمان على المخدِّرات ـ وقع فيه أبناؤهم، حيث أصبحوا يَقضون أغلب ساعات يومهم مع الشَّبكة، والعجيبُ في الأمر أنَّهم ذهلوا لما رأوا فيها من شدَّة الإباحيَّة وهم كفَّارٌ، والأعجب من هذا أنَّك تراهم أشدَّ حرصًا على أولادهم، وأكثر خوفًا عليهم من بعض المسلمين على أبنائهم.

وكذلك بدأت بعض الدُّوَل غير المسلمة تتوجَّسُ من هذا الخطر الدَّاهم خيفةً، وتسعى لتهذيب «الإنترنت» وتوجيهه لما ينفعُ، ونحن معشرَ المسلمين ـ آباءً ومُربِّين ومُعلِّمين ومسؤولين ـ أولى بأن نعمل جاهدين لدرء مفاسد هذه الوسيلة قبل استفحال الأمر، وفوات الأوان.

وإنَّ ممَّا يُنذر بالخَطر: هو انتشارُ «مقاهي الإنترنت» الَّتي يُؤكِّد بعض القائمين عليها: أنَّ نسبةً كبيرةً من القادمين إليها ـ تبلغ (89 ٪) ـ: هم من زوَّار غرف الدَّردشة، الَّذين يَقصدونها للتَّسلية المحرَّمة: كالاتِّصال بالأجنبيَّات، والتَّحدُّث معهنَّ في مواضيع الجنس، وتبادُل المواعيد، وإقامة علاقات مشبوهة مع فتيات من دول مختلفة، وكذا زيارة مواقع الخنا والرَّذيلة، الَّتي تُروِّج لممارسة الفاحشة وتُحرِّض عليها، ويتمُّ ذلك عن طريق نَشر الصُّور الخليعة وأفلام الجنس، وهو ما يُؤدِّي إلى تفشِّي الفساد الأخلاقي والشُّذوذ، وانتشار الأمراض الفتَّاكة الخطيرة، هذا كلُّه، ناهيك عن إضاعة الأوقات فيما لا يُجدي ولا ينفع، بل يضرُّ ويُفسد ويُهلك.

وعلى المسلمين أنْ يتفطَّنوا لدسائس أعدائهم الَّذين يَسعون جاهدين ـ عن طريق هذه الوسائل ـ إلى تَدمير الأُسرة المسلمة، وتحطيم القيم والفَضيلة، ونَشر الرَّذيلة والفاحشة في الَّذين آمنوا، بعرض الصُّور الخليعة، والمشاهد الإباحيَّة، الَّتي تُفسد الكبار فضلاً عن الصِّغار، وتجعل الإنسان عبدًا للغريزة الحيوانيَّة.

وحسب إحصائيات «أليكسا» المعني بإحصائيات مواقع الإنترنت: فإنَّ الجزائر تحتلُّ المركز الـ (17) في زيارة المواقع الإباحيَّة، وأنَّ (70 ٪) من مُدمني الإنترنت مُدمنون على المواقع الإباحيَّة، وأنَّ أكثر من 28 ألف مُستخدم له يتصفَّح مواقع إباحيَّةً في كلِّ ثانية، ويبلغ إجمالي عدد النِّساء من زُوَّار المواقع الإباحيَّة نحو: 9،4 ملايين امرأة شهريًّا، وإنَّ (23 ٪) من زُوَّار المواقع الإباحيَّة هنَّ من النِّساء، ويبلغ عدد المواقع الإباحيَّة على «شبكة الإنترنت»: 4،2 ملايين موقعًا، ونسبة زوَّار المواقع الإباحيَّة من مُستخدمي «الإنترنت»: (42،7 ٪) من إجمالي زُوَّار الشَّبكة.

ومن أساليب المواقع الإباحيَّة ومكرها في إغراء الشَّباب وإغوائهم: التَّفنُّن في التَّمويه عليهم، كأنْ تتَّخذ أسماء مواقع علميَّة أو تجاريَّة أو نحوهما، فتُوقعهم في شراك الرَّذيلة، وعندما يزورون هذه المواقع الإباحيَّة خطأً، ودُون علم ودراية، يأتي دَور الشَّيطان بعد ذلك، فيستدرجهم ويُزيِّن لهم المنكر، فتميل إليه نفوسهم الضَّعيفةُ، ثمَّ يألفون تلك الصُّور، فيُدمنون على النَّظر إليها.

■■■

وممَّا زاد في الطِّينة بلَّة ـ كما يُقال ـ: هو أنَّ هذا التَّطوُّرَ المذهل في مجال الاتِّصال أثَّر سلبًا على الأسرة التي لم تَعد قادرةً على التَّحكُّم في الأولاد، ولا التَّأثير فيهم كما كان الأمر سابقًا، وإنَّ مسؤوليَّةَ وقايتهم من خطر هذا الوافد الجديد تقع بالدَّرجة الأُولى على عاتق الوالدين، إذ عليهم تحصين أبنائهم بالتَّربيَّة الإسلاميَّة، والتَّوعية والإرشاد، والتَّنشئة الدِّينية الصَّحيحة منذ الصِّغر، والتَّحذير من كلِّ ما هو إباحيٌّ وفاسدٌ، وتوجيههم إلى المواقع المفيدة، إنْ كان ولا بدَّ من استعمالها.

■■■

وممَّا أصبح يُهدِّد حياة الأُسَر: انصراف بعض الأزواج عن مسؤوليَّاتهم العائليَّة، وحياتهم الزَّوجيَّة، بسبب مُكوثهم أمام الشَّاشات مُتابعين لجديد الشَّبكة، لساعات طويلة ليلاً ونهارًا، ممَّا يُؤدِّي إلى نزاعات كثيرة تقع بين الزَّوْجَين، وينتهي الأمر عادةً بالانفصال بينهما بالطَّلاق أو الخُلع.

■■■

ولم يكتف أعداء الإسلام بتدمير قِيَم الشَّباب المسلم بالصُّور الإباحيَّة والمشاهد الخليعة؛ بل اتَّخذوا وسائلَ شيطانيَّةً أُخرى لنشر سُمومهم وبثِّ شَرِّهم، حتَّى ظَهرَت مواقعُ مُعاديةٌ للإسلام؛ تعمل على هدم أركانه، وزعزعة العقيدة في نفوس المسلمين، وتَشكيكهم في الثَّوابت والمسلَّمات، وذلك بإلقاء الشُّبُهَات بعد

الإغراء بالشَّهوات، ثمَّ التَّرويج للعقائد المنحرفة، والأفكار الباطلة، مثل الفكر الإلحادي، وذلك بالأساليب الجذَّابة، الَّتي تُؤثِّر في أصحاب الهوى، وفيمَن لا علم لهم، وهُم كثيرون للأسف الشَّديد.

■■■

ومِن الأخطار أيضًا أنَّ هذه الشَّبكةَ أضحت أداةً خطيرةً في أيدي بعض الغُلاة، الَّذين يُروِّجُون لأفكار مُجانبة لوسطيَّة الإسلام وسماحته، قَصْدَ إثارةِ الفتن، وتضليل المسلمين، والانتقاص من العُلماء الرَّبَّانيِّين، وتكفير الحُكَّام. ولقد فَتح هؤلاء الغلاة مواقع الفتنة الَّتي يدعون الشَّباب عن طريقها ومِن خلالها إلى الالتحاق بصُفوف المقاتلين والمجاهدين زعموا، فينشرون فيها صُوَر التَّفجير والتَّدمير، ويُظهرون مشاهد القتل والذَّبح والتَّعذيب، الَّتي تبثُّ الخوفَ والرُّعبَ في قلوب النَّاس، فنفَّروا بذلك من دين الإسلام؛ لِسوء صنيعهم الَّذي لا يَمُتُّ إلى ديننا بِصلة.

■■■

ومِن أخطار الإنترنت تَشجيع بعض الفِرق المنحرفة ذات العقائد الضَّالَّة على الانتحار، فتُعلِّم بعض الشَّبابِ طُرق قتل النَّفسِ وتُسهِّل لهم ذلك، وتُوهمهم أنَّهم إنْ فعلوه عاشوا في عالَم آخر أحسن مِن عالمهم، فيبادر بعض السُّذَّج مِن الخلق إلى تطبيق ما يُزيَّن لهم، فيُقدمون على الانتحار الجماعي.

■■■

ويا ليت هذه الأخطار والأضرار توقَّفت عند الشَّباب والكهول فحسب، بل إنَّها تَعدَّتْهم فأصابَتْ أطفال اليوم الَّذين لهم مَهارَاتٌ فائقةٌ في استخدام هذه الأجهزة الحديثة بإحكام يفوق أحيانًا استخدام الآباء والأمَّهات، فجذبتهم الشَّبكة، فأصبحوا يتجوَّلون في المواقع المختلفة دون إدراك ولا وعي ولا رقيب، وبدون تمييز لما يُقدَّم لهم فيها، فأثَّرَت في ثقافتهم وقِيَمهم وأخلاقهم، والتَّغيُّر واضحُ الأثرِ عليهم، لا يُمكن تجاهُله ولا إنكاره، هذا بغَضِّ النَّظر عن انخفاض مُستواهم الدِّراسي والتَّعليمي بسبب ذلك.

ولقد أكَّدت بعض الإحصائيَّات أنَّ مُتوَسِّطَ سنِّ الأطفال الأكثر اعتيادًا على زيارة المواقع الإباحيَّة من سنِّ 15 سنة إلى سنِّ 17 سنة، وأنَّ ما يقرُب من 26 ٪ من الأفلام الكارتونيَّة المُحبَّبة إلى الأطفال تُستغلُّ لاصطيادهم إلى المواقع الجنسيَّة.

■■■

ومِن مفاسد هذه الشَّبكة: سعيُ بعضِ عَديمي الأخلاق في تَشويه سِير الصَّالحين؛ بأخذ صُوَر لهم وتركيبها على أجساد يُمارس أصحابُها الفاحشة مثلاً، أو بتركيبِ صُوَر نساء عفيفات طاهرات على أجساد عاريات عاهرات، ممَّا يُسبِّبُ لهؤلاء الأبرياء حرجًا كبيرًا، فيُرمَون بالفاحشة وهم منها بَراءٌ، وهذا ما يُؤدِّي في العادة إلى انفصال الزَّوْجَيْن بسبب صنيع شياطين الإنس هؤلاء، الَّذين يُفرِّقون بين المرء وزوجه.

ومنهم مَن يذهب إلى أبعد من ذلك، فيُساوم بعض مَن التقط صورَتَه وبدون إذنه، ويُهدِّدُه إنْ لم يفعل ما يأمره به: أنْ يُلطِّخَ سمعتَه بنشر صورته مُشوَّهَةً.

■■■

ومع تطوُّر البشر في التِّقنيات العلميَّة في مختلف النَّواحي، وفي صدارتها وسائل الاتِّصال الَّتي جعلت العالَم قريةً يطَّلعُ قاطنوها على أحداث السَّاعة، استغلَّ بعضُ المُجرمين هذا التَّقدُّمَ كي يَرتَكِبُوا جرائمَهم، ومِن أبرَزها عمليَّاتُ النَّصب والاحتيالِ الَّتي تَحصُل في البيع والشِّراء عبر «شبكات الإنترنت»، وكذا اختراق المواقع الرَّسميَّة أو الشَّخصيَّة، أو مهاجمتها قصدَ إلحاق الضَّرر بأصحابها، والدُّخول إلى حسابات بعض المؤسَّسات والأفراد وابتزاز أموالهم، والاستيلاء على بطاقات ائتمان الآخرين. ويُذكر أنَّ مُخترقي نُظُم الكمبيوتر عَبر الشَّبكات صنفان: صنفٌ منهم فُضوليُّون، وصنفٌ آخر عميلٌ لمنظَّمات وجهات خارجيَّة يتجسَّس لحسابها.

■■■

ويَكمُن خطر جرائم «الإنترنت» في كونها غير مَحصورة في إقليم أو بلد مُعيَّن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: في صعوبة التَّعرُّف على مُرتكبيها؛ لإلحاق العُقوبة بهم.

ثمَّ إنَّ الإعلان عن جرائم الفجور والدَّعارة وغيرهما من الأفعال الإجراميَّة عبر الشَّبكة؛ مِن الأسباب الَّتي تُساعد في زيادة الجرائم بكلِّ أنواعها، خاصة الأخلاقيَّة منها.

■■■

وبسبب السُّرعة الفائقة الَّتي تتميَّز بها الشَّبكةُ في نقل المعلومات، بادر كثيرٌ مِن النَّاس إلى نشر الأخبار، الَّتي تَبثُّها مواقعُ ومنتدياتٌ مختلفة، فيَتلقَّفُها بَعضُهم وكأنَّها القولُ الفصلُ الَّذي ليس بالهزل، دُون تثبُّت ولا تمحيص، ثمَّ يقومون بتحويلها ـ على أنَّها بشائر

-عبر الرَّسائل المختلفة- الطَّويلة منها والقصيرة- إلى غيرهم، فيُصيبون قومًا بجهالة، فيصبحون على ما فعلوا نادمين.

■■■

ومِمَّا شاع من السَّرقات الَّتي لحقت الشَّبكات: الاعتداء على الإنتاج الذِّهني والفكري للآخرين، وهو ما يُعرف بحُقوق التَّأليف، والملكيَّة الفكريَّة، ويكون هذا الاعتداء بأَخْذ فُصول من مُصنَّف مُعيَّن ونسبته للسَّارق دون إشارة أو إحالة، أو ترجمة كتاب إلى لغة أُخرى بدون إذن مؤلِّفه، فكم هم كثيرٌ المتخرِّجون والمُتخرِّجات في جامعاتنا بشهادات الزُّور؛ كون رسائلهم الجامعيَّة مسروقةً بطريقة «النَّسخ واللَّصق» المعروفة، وهذا هو سببُ ضعف العلم وتدنِّي المستوى عند أجيالنا، الَّذين زهدوا في القراءة والمطالعة، فتبلَّدت عُقولُهم وسفهت أحلامهم.

■■■

ومن مفاسد «الإنترنت»: إصابة المُدمنين من مستخدميه بالأمراض النَّفسيَّة، فأكثرُهم من المُصابين بالاكتئاب، وحُبِّ الانطواء، والعُزلة عن الآخرين؛ لأنَّهم يعيشون في عالَم الأوهام والخيال، ويتحدَّثون أحيانًا مع مَن لا يعرفون أشخاصَهم ولا صُوَرَهم. وقد تجد بَعضَهم مُصابًا بداء العظمة؛ ربَّما لكتابة شارك بها في مُنتدًى، وإنْ كانت من تأليف غيره، فيَنفخ فيه بعضُ مَن لا يَعرفُه، فيظنُّ المسكين أنَّه فريدُ زمانه، ووحيدُ عَصره، وهو في الحقيقة من المغمورين، الَّذين لا وَزنَ لهم في دائرة معارفهم.

ومن جهة أُخرى فإنَّ هذا الانطواءَ والانعزال بسبب الإدمان على «الإنترنت» له أثرٌ سيِّءٌ على حياة الأسر، حيث مزَّقَ شملها، وشتَّت اجتماعها، فأصبح لكلِّ فرد منها جوُّه الخاصُّ به، وضاع الدِّفءُ العائلي والجوُّ الأُسَري الَّذي كان يَضُمُّ الجميعَ، فلذا قد تجد بعضَهم مُجتَمعين ولكن بأجسادهم دون أرواحها؛ لانغماس كلِّ واحد منهم في عالَمه الخاصِّ، لا يأبه بما يحدث حوله، وقد لا يشعر بمَن يجلس أمامه ولو كان أباه أو أُمَّه!!

■■■

ومن الآثار السَّيِّئة النَّاتجة عن مُشاركة بعض النِّساء في المنتديات المبثوثة في الشَّبكات، والَّتي تَكثُر فيها مُداخلات الرِّجال: هو حدوث مخالفات، وتعلُّق قلوب بعضهم ببعض، وافتتان بعضهم ببعض، لاسيَّما مع ضعف المرأة وتأثُّرها بالكلمة الرَّقيقة اللَّطيفة، الَّتي تُثمرُ عادةً تعلُّقًا وميلاً ولهذا كان من الحزم ابتعاد المرأة عن مُنتديات الرِّجال، والسَّلامة لا يعادلها شيءٌ، فإنْ كان ولابدَّ فالمشاركة في المنتديات الخاصَّة بالنِّساء وهي كثيرةٌ وعديدةٌ ومتنوِّعةٌ، على أنْ تختار المسلمةُ الأنفع منها والأصلح، الَّذي يُفيدُها في دينها ودُنياها.

■■■

وللحدِّ من هذا الاستعمال السَّيِّء لـ «الإنترنت» يُنصح بتنصيب برامج حاسوب يُمكنها حَجب مُعظم المواقع الضَّارَّة، والحماية من الصُّور الإشهاريَّة الفاتنة، والمنع من تَنزيل الأفلام والبرامج الفاسدة، ويمكن أيضًا وَضع قائمة بالمواقع المتصفَّحَة المسموح بها، وحَجْب البقيَّة، وكذا، استخدام برامج الرَّقابة؛ لاطِّلاع الآباء على كلِّ صغيرة وكبيرة ممَّا يجول فيه أولادهم.

ولمَّا كان الشَّرُّ مَعروضًا -في «الإنترنت»- بشتَّى الصُّوَر، وبإمكان كُلِّ أحد أنْ يُطلق لِسانه بما يُريد، وأنْ يُجيل بصَرَه فيما يشاء، وأنْ يَكتب بيده ما يحلو له؛ فإنَّنا ننصح المتعاملين مع الشَّبكة من المسلمين والمسلمات أنْ يتثبَّتُوا ممَّا يقولون ويسمعون ويقرأون، وأنْ يتَّقوا اللَّه ربَّهم، ويستحضروا رقابته واطِّلاعه عليهم، وينظروا في عاقبة أمرهم، ويتذكَّروا عقابه، ولْيَخْشَوْا أن تَأتيَهم مَنيَّتُهم وهم يُقلِّبون أبصارَهم في الصُّور الممنوعة، فيموتوا على سوء الخاتمة، واللَّه المستعان.

■■■

أسأل اللَّه تعالى بأسمائه الحُسنى وصفاته العلى أنْ يُجنِّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأنْ يجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشَّرِّ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه ربِّ العالمين(5).

■■■

(5) استفدتُ هذه المفاسد والأخطار من مجموع مقالات مبثوثة هنا وهناك في الشَّبكة وفي غيرها، جمعتها، ثمَّ نسَّقت بينها، وزدت عليها، فكانت على هذا الشَّكل.



الكحول

بين الاصطلاح العلمي والفهم الشرعي

د.نبيل مصطفاوي
طبيب عام . الجزائر



الكحولات من المواد الكيميائيَّة الشَّائعة في الطَّبيعة، يرتبطُ ذكرها بالخمور والمسكرات.

والمُتجوِّل على شبكة المعلومات العالميَّة، يرى الاختلاف والتَّنوع في الفتاوى الشَّرعيَّة المتعلِّقة باستعمالاتها المختلفة[1].

وذلك يرجع أساسًا إلى أنَّ المعطيات العلميَّة الَّتي انْبَنَتْ عليها تلك الأحكام لم تكن صحيحة أو دقيقة على أقل تقدير.

ومن أولى الحقائق الَّتي يجب معرفتها أنَّه ليس كلُّ كحولٍ مسكرًا، بل إنَّ منها ما لا غنى لنا عنه[2] في حياتنا اليومية.

من هنا ارتأيت أن أوضِّح لقرَّاء هذه المجلَّة الغرَّاء، بعض المفاهيم العلميَّة المتعلِّقة بهذه المواد، كنت قد جمعتها قبل بضع سنين في إطار بحث لي في نفس الموضوع، محاولاً ـ في أسلوب سهل ـ تسليطَ الضَّوء على ما خَفيَ من حقائقها، وموثِّقًا ذلك بمراجع عامَّة، يتسنَّى للجميع الرُّجوع إليها إن شاء الله.

(1) حتَّى إنَّه طَرَقَ أذني أنَّ بعضهم يحرِّم دواء البار اسيتامول؛ لكونه كحولاً مستدلاً لذلك بصيغة لفظه الَّتي شاكلت أسماء الكحولات!!!

(2) كمركَّب الغليسرول (Glycerol) الَّذي يدخل في تركيب بعض الدُّهون الأساسية في الجسم.

الكحول في المشروبات الكحولية[3]:

تتكوَّن المشروبات الكحولية أساسًا من الماء، ومن عناصر أخرى مذابة، كالسُّكَّريَّات والأحماض والفيتامينات وغيرها.

لكن المواد الكحوليَّة أهمُّ مكوِّناتها، فإنَّنا نحصي ما يربو عن العشرين نوعًا[4] منها، كالمانيتول والإينوزيتول والسوربيتول والميثانول والغليسيرول.

ولعلَّ أهمَّ كحول فيها المَّادة الَّتي يسمِّيها الكيميائيُّون «الايثانول»، أو «الكحول الإيثيلي»، فإليها تنسب المشروبات الكحولية، وإليها أيضًا تنسب جميع الحالات المرضيَّة والمعضلات الاجتماعيَّة النَّاجمة عن المُسْكِرات، فهي وراء كلِّ التَّأثيرات العقليَّة والجسميَّة الَّتي نصطلح عليها في عرفنا اللُّغوي بحالة

(3) يجدر بنا ونحن نتكلَّم عن الخمور أن نستعمل مصطلح المشروبات الكحوليَّة، فهو أعمُّ وأنسب، وذلك أنَّ الغرب يفرِّق بين المشروبات الكحوليَّة والخمر، فالخمر ما نتج عن العنب لا غير، انظر: «لوائح الاتِّحاد الأوروبي» على الرَّابط:
http://eur-lex.europa.eu/LexUriServ/LexUriServ.do?uri=OJ:L:1999:179:0001:0084:FR:PDF

(4) انظر «الموسوعة العلميَّة اونفارساليس» على الرَّابط:
http://www.universalis.fr/encyclopedie/vignes-et-vins/

السُّكْرُ[5][6].

يمثِّل «**الكحول الايثيلي**»، العامل الأساس الَّذي يحدِّد خصائص الخمرة، من حيث «القيمة النَّوعيَّة»، و«القيمة التِّجاريَّة»، فكلَّما كانت به أغنى، كانت أخلص.

ونجده يمثِّل في خمرة العنب على سبيل المثال من (7%) إلى (61%) من الحجم الكلِّي، ويُعَبَّر عن هذا التَّركيز أيضًا بـ«**الدَّرجة**» ولا فرق، فيقال: كحول (1) درجة أو (1) بالمائة، ويعني لترًا من الايثانول من ضمن (100) لترٍ من المزيج الكلِّي[7].

ينتج الإيثانول عن عمليَّة التَّخمُّر الطَّبيعي؛ ففي أحوال معيَّنة، ومع الوقت، تقوم جراثيم خاصَّة بتحويل سكَّريَّات الفواكه أو الحبوب الَّتي تُركت لتخمر إلى **كحول إيثيلي وغاز**، وقد يتدخَّل المصنِّعون في العملية لأغراض معيَّنة، كإرادة تركيز المحلول المتخمِّر بإضافة شيء من **الإيثانول** الصِّرف أو المُسْتَقْطَر[8].

❋❋❋

■ تُصنَّفُ الخمور بحسب درجتها الكحوليَّة إلى عدَّة أقسام منها[9]:

□ **المشروبات الَّتي تقلُّ فيها نسبة الكحول عن** (1.2 %) أو ما يسمَّى بـ«**الجعَّة بدون كحول**» **أو** «**قليلة الكحول**»:

والحقيقة أنَّها ليست بالخالية من الكحول كما هو مُشاع، وإنَّما جُعلت لها نِسبٌ قصوى بموجب قوانينِ تصنيعها.

ويجدر بنا ملاحظةُ فرقٍ بين الاصطلاحات الانجلوساكسونيَّة من جهة والاصطلاحات الفرنكفونيَّة من جهة أخرى: فبينما يعتبر الأوروبيُّون كلَّ جعَّة خالية من الكحول إذا لم تتجاوز النِّسبة فيها (1.2 %)[10]، **يشترط الأمريكيُّون لذلك أن تقلَّ النِّسبة عن** (0.05 %)، **وما تعدَّى ذلك؛ فإمَّا منزوعة الكحول** [**بين** (0.05%) و(0.5%)] **أو قليلة الكحول** (**أقل من** 1.2%)[11].

○ وللفائدة التَّاريخيَّة؛ نذكر أنَّ الأمريكيِّين أصدروا في بداية القرن العشرين، تعديلاً في دستورهم يهدف إلى حماية الحياة العامَّة من مظاهر الانحراف النَّاجمة عن تناول الكحول وإدمانها، فمنعوا بموجبه كافَّة المعاملات المتعلِّقة بصناعة المشروبات الكحولية التي تتجاوز نسبتها (0.5%)، وبيعها، وشرائها، ونقلها[12].

○ ويتمُّ تصنيع هذا النَّوع من الجعات بطريقتين:

الأولى: تصفية الجعَّة من الإيثانول بعد عمليَّة تخمُّر سريعة، وهذه هي الطَّريقة الشَّائعة.

الثَّانية: استعمال طرق أخرى غيرَ التَّخمُّر بحيث لا ينتج عن العمليَّة أيّ كحول، ولا يعدو إطلاق لفظ الجعَّة ههنا أن يكون مجازًا.

□ **المشروبات الَّتي تتراوح فيها نسبة الكحول بين** (1%) و(7%) مثل أَنْبِذَة التُّفَّاح والإجاص وعموم الجعات.

□ **المشروبات الَّتي تتراوح فيها نسبة الكحول بين** (8%) **إلى** (20%) وهي عمومًا خمور العنب.

□ **المشروبات الَّتي تفوق فيها نسبة الكحول** (20%) وهي المسمَّاة بالمشروبات الرُّوحيَّة أو المشروبات المقطَّرة، وقد تتعدَّى النِّسبة فيها (50%).

□ **الخلائط** وهي مزيج من عدَّة أنواع تكون نسبة الكحول فيها بحسب نسب المشروبات الممزوجة.

❋❋❋

■ ما هي النِّسبة الفاصلة بين المُسكر وغير المُسكر؟

أثبتت الدِّراسات الطِّبِّيَّة المختلفة أنَّ اختلال ردود الأفعال، وفقدان القدرة على التَّمييز، واتِّخاذ الأحكام عند شاربي الكحول، يبدأ عند نسب دمويَّة تتراوح بين (0.2 غرامًا) و(0.5) في اللِّتر من الدَّم[13].

وبالرّغم من صعوبة تحديد قيمة دنيا دقيقة وواقعيَّة لهذه النِّسبة؛ للاختلافات الموضوعيَّة بين النَّاس في السِّنِّ والجنس والحالة الصِّحِّيَّة، إلاَّ أنَّه يمكن وبواسطة

(5) انظر: ويكيبيديا ـ مفتاح البحث: كحولية.
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%AD%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%A9

(6) وانظر: «لسان العرب» تحت جذر «سكر».

(7) انظر «لوائح الاتحاد الأوروبي» على الرَّابط:
http://eur-lex.europa.eu/LexUriServ/LexUriServ.do?uri=OJ:L:1976:262:0149:0152:FR:PDF

(8) سيأتي فيما يلي مزيد بيان عن التَّقطير.

(9) هذه النِّسب تحدِّدها قوانين الاتِّحاد الأوربي بالنِّسبة لكلِّ نوع من المشروبات الكحوليَّة، كما في مذكِّرة المجلس برقم (89/1576) الصَّادر في 29 ماي 1989.
وانظر:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Alcool

(10) انظر: ويكيبيديا على الرَّابط:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Bi%C3%A8re_sans_alcool

(11) انظر ويكيبيديا:
http://en.wikipedia.org/wiki/Low-alcohol_beer

(12) موسوعة «اونيفارساليس»:
http://www.universalis.fr/encyclopedie/prohibition/

(13) للمتخصِّصين: انظر المقال الطِّبِّي:
http://www.em-consulte.com/article/10593/alcool-ethylique-et-systeme-nerveux



عمليَّات حسابيَّة سهلة نسبيًّا[14]، قياس كميَّات الكحول في دم من احتسى أقلَّ أنواع المشروبات الكحوليَّة تركيزًا[15] ومقارنتها بالنِّسب القانونيَّة الَّتي تسمح بها القوانين الغربيَّة في دم مواطنيها، وعندئذ يمكننا تقدير إمكانيَّة تسبُّبها في الإسكار من عدمه.

(14) يمكن حساب كميَّة الكحول في دم شاربه باستعمال العلاقة الآتية:
نسبة الكحول في الدَّم = (حجم الكحول المشروب ضرب درجة الكحول ضرب 0.8) مقسومًا على (وزن الشَّخص ضرب عامل اختلاف الجنس)، انظر ويكيبيديا الرَّابط: http://fr.wikipedia.org/wiki/Alcool%C3%A9mie

(15) ولتكن في مثالنا الآتي جعةً خالية من الكحول بحسب التَّعريف الأوروبي بدرجة تركيز (1 %).

فمن المعلوم أنَّ قوانين العالم تعاقب الَّذين يقودون سيَّاراتهم إذا تعدَّت كمِّيَّة الكحول في دمهم الحدَّ القانوني المسموح به، هذا الحدُّ يختلف من بلد لآخر، فنجده في السُّويد مثلاً (0.2 [16] غرامًا) من لتر الدَّم، وهو يعادل نظريًّا احتساء امرأة تزن (50 كيلوغرامًا) لـ (750 مللترًا) (ثلاثة أرباع اللِّتر) من جعة درجة الكحول فيها (1 %)[17]، أو (1500 مللترًا) (لتر ونصف) من جعة نسبة الكحول فيها (0.5 %)، وشرب هذه الكميَّة ممكن جدًّا، فقد تصل سعة المعدة إلى أربعة لترات أي ضعف الكميَّة الَّتي حسبناها للتوِّ!!

زيادة على هذا، ومن جهة أخرى فإنَّ الإحصائيَّات المتعلِّقة بالكحول تؤكِّد ما نحن بصدده:

ففي فرنسا ـ مثلاً ـ هلك بسببه (عام 2006) أكثر من (45000) شخص، نصفهم بصفة مباشرة، وإذا عَلِمنا أنَّ الفرنسيَّ الواحد قد استهلك في نفس السَّنة ما معدَّله ثلاثة كؤوس قياسيَّة من الكحول يوميًّا[18]!! أي ما يعادل نظريًّا (7.5 لترًا) يوميًّا متفرِّقة من جعَّة بنسبة (1 %)[19].

❀❀❀

(16) (0.5) في فرنسا وبلجيكا، (0.8) في كندا، وحتى (0) مطلق بالنسبة للمجر ورومانيا، انظر المرجع السَّابق:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Alcool%C3%A9mie

(17) وهذا يعادل ثلاث قنينات قياسيَّة.

(18) تستهلك الخمور حسب وحدات أو كؤوس قياسيَّة تكيَّف لكلِّ نوع منها، في كلِّ وحدة (10 غراما) من الايثانول الصِّرف، فحجم كأس الويسكي القياسي (40°) يعادل 30 مللترا، وحجم الكأس القياسي من البيرة العادية (5°): 250 مللترا (ربع لتر) وكلاهما يحوي نفس الكميَّة من الإيثانول الصِّرف، انظر:
http://www.2340.fr/unites__alcool.php

(19) ويكيبيديا:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Alcoolisme#Co.C3.BBt__social__et__.C3.A9conomique

■ الكحول في الصناعات الغذائية:

تدخل بعض الكحولات في الصِّناعات الغذائيَّة، منها الغليسيرول والسُّوربيتول والدولسيتول، وكلُّها كحولات مشتقَّة من السُّكَّريَّات، مستعملة في صناعة الحلوى والسَّكاكر والمُحَليات البديلة عن السُّكَّر[20]، ولعلَّ أهمَّها الغليسيرول الَّذي سبق ذكره من ضمن مكوِّنات المشروبات الكحوليَّة، فهو ثاني مكوِّناتها حضورًا من حيث النِّسبة (من 10 % إلى 15 %).

وتشترك هذه النَّوعيَّة من الكحولات ـ بما فيها الغليسيرول ـ في كونها غير مسكرة.

أمَّا الخلُّ؛ فمشهورٌ عند العامَّة، احتواؤُه على الكحول، وقد يمتنعون عن تناوله لذلك، ويستدلُّون بالدَّرجة المنصوص عليها في غلاف العبوة، وهذا من الأخطاء الشَّائعة، فالخلُّ ناتج عن تخمُّر[21] وتحوُّل الإيثانول من كحول إلى حمض.

ويخلو الخلُّ الصِّناعي تمامًا من الكحول (وهو عامَّة الخلِّ التِّجاري المباع في الأسواق).

أمَّا الدَّرجة المنصوص عليها في العبوة؛ فمُعَبِّرة عن الحموضة لا عن الكحول.

لكن يجدر التَّنويه إلى أنَّه قد نجد بعض الكحولِ في الخلِّ المُصَنَّع بالطُّرق التَّقليديَّة، والتَّنظيمات تفرض على المصنِّعين بهذه الطَّريقة حدودًا لنسبه المختلفة (1 % كأقصى حدٍّ)[22].

(20) ويكيبيديا:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Polyol

(21) كيميائيًّا: الخلُّ نتيجة للتَّخمُّر الطَّبيعي المزدوج للسُّكَّريَّات.

(22) «الجريدة الرَّسميَّة الفرنسيَّة»: الأمر رقم (88 ـ 1207) الصَّادر في (30 ـ 12 ـ 1988).

قد تحتوي الفاكهة وبعض النَّباتات طبيعيًّا على بعض المواد المُصنَّفة كيميائيًّا ككحولات (كالمنتول في أوراق النَّعناع، السيترونلول في أزهار الورد)، إلاَّ أنَّ عصائرها في الأصل خالية من الإيثانول، ويجب أن تكون كذلك، اللَّهُمَّ إذا توفَّرت شروط التَّخمُّر الكحولي حالَ تخزينها، فيكون مُصَنِّعُها - والحالة هذه - مخالفًا للتقنينات المتعلِّقة بتصنيع المشروبات غير الكحوليَّة، وغاشًّا لزبائنه.

❁❁❁

■ الكحول الإيثيلي في الكيمياء والطِّب والصِّناعة:

الايثانول سائل عديم اللَّون وذو رائحة نفاذة، يتبخَّر بالتَّسخين قبل تبخُّر الماء، فبذا يمكن استخلاصه صرْفًا، بتكثيف البخار المتحصِّل عليه من تسخين خليط سكَّري متخمِّر، في درجة حرارة دون درجة تبخُّر الماء، وتسمَّى هذه العمليَّة بـ«التَّقطير».

وهو يُستخدم في ميادين صناعيَّة شتَّى، لعلَّ أشهرها صناعة العطور ومواد التَّجميل.

وينبغي هنا التنبه إلى حقيقة أنه في كل هذه الاستخدامات، وبموجب قوانين وتنظيمات خاصة يُحوَّلُ الإيثانول عن حقيقته الأصليَّة بإضافة مواد تجعله غير قابل للاستهلاك أو سامًّا (بإضافة الكحول الميتيلي، أو الكيروسين مثلاً) ويسمَّى إذ ذاك كحولاً مسيخًا[23].

(23) نجده مثلاً في عبوات العطور مرموزًا اليه بعبارة: Aalcool dénaturé أو (alcool denat)، والحقيقة أنَّ أرباب الصِّناعات، يستعملون هذا النَّوع المسيخ لكونه أرخص، فالجباية والضَّرائب المضروبة على الايثانول الصِّرف مرتفعة.

ونجده في المجال الطِّبِّي والصَّيدلي مستعملاً على حالتيه: صرفًا ومسيخًا.

○ ويمكننا تقسيم الأدوية المحتوية عليه إلى قسمين[24]:

- أدويةٌ شروبةٌ، ولا يكون فيها الإيثانول إلاَّ صَرْفًا.

- أدويةٌ غيرُ شروبة، أو علاجات موضعيَّة تختلف فيها حالته بحسب نوعيَّة الدَّواء، والأغلب أيضًا أن يكون صرفًا غير مسيخ.

إذا نظرنا إلى القسم الأوَّل؛ فإنَّنا نجده يضَمُّ أغلب مضادَّات السُّعال، وعددًا من المهدِّئات والمهلوسات، كما نجد أدويةً لعلاج الحساسيَّة والبواسير، وأنواعٍ أخرى.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنَّه يَرد في النَّشريَّات المرفقة لكلِّ أدويةِ هذا القسم تحذيرٌ خاصٌّ لمرضى الكبد، ومدمني الكحول، والأطفال والحوامل، لأجل آثار وجود الكحول الإيثيلي فيها عليهم.

بينما يضُم القسم الثَّاني **المعقِّمات** بأنواعها المختلفة كمعقِّمات الحلق الموضعيَّة (وهي الأكثر تمثيلاً بين الجميع)، والمراهم المضادَّة للالتهاب، وبعض أدوية حبِّ الشَّباب والأمراض الجلديَّة الأخرى.

ونسبته في الأدوية قد تكون مرتفعة للغاية، أقلُّها في حدود بحثي (30°) وقد تصل إلى حدِّ (90°)، لذا يتوجَّب ههنا الرُّجوع إلى نشريَّة كلِّ دواء على حدة

(24) «قاموس الأدوية الفرنسي فيدال»، انظر: الموقع: http://www.vidal.fr

لمعرفة تكوينه قبل وصفه أو استعماله، خاصَّة إذا كان من الأصناف الشَّروبة أو ما يستعمل داخل الفم[25].

❁❁❁

■ الخلاصة:

على ضوء ما سبق، تتجلَّى لنا الحقائق التَّالية:

- إصدار حكم شرعي عن استعمال مادَّة كحوليَّة، يرتبط بوجود الكحول الايثيلي فيها من عدمه.

يجب الحذر من كلِّ المشروبات الايثيلية بكلِّ أنواعها، بما فيها الأدوية، أيًّا كانت درجتها وتركيزها.

- يجب الحذر من الجعَّة المسمَّاة خالية من الكحول، والتَّأكُّد من طريقة تصنيعها، ودرجة الكحول فيها.

أرجو من الله - عزَّ وجلَّ - أن يجد إخواني في هذا المقال لتساؤلاتهم الجواب، وأن أكون قد وُفِّقْتُ فيه للصَّواب.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

❁❁❁

(25) لذا يتطلَّب الأمر من إخواننا الأطباء، مراجعة النَّشريَّات المرفقة مع الأدويَّة للتحقُّق من مكوِّناتها قبل وصفها للمرضى، ولعلَّ استعمال البرامج الحاسوبيَّة المتخصِّصة والمتاحة حاليًّا يُسهل من هذه المهمَّة.





بريد القراء

❁ وفّق الله أمّ حفصة وشكر اللهُ غيرَتها على دين الله، وقد تأسّفَتْ كثيرًا على الفساد العقدي والأخلاقي المنتشر في الأمّة، وبيّنت طريقَ الخلاص من ذلك، وأنّه لا يكون إلاّ بتحقيق التّوحيد الّذي هو أساس دعوة المُرسَلين ولُبُّها وحقيقتُها.

كما توجّهَت ـ جزاها الله خيرًا ـ بكلمة وعظيّة لبنات جنسها ذكـرَتْ فيها الفرقَ البيِّنَ الواضحَ بين الشّريفة العفيفة والدّنيئة الفاسدة، فالأولى أطاعت ربَّها وأكرمت نفسَها، وأحصنَت فرجَها، والثّانيةُ عصت ربَّها وأهانت نفسَها ودنَّسَت عرضَها؛ وصدَقَ الله إذ قال: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾ [سُورَةُ المَائدَة].

❁ وجزى الله أحدَ الغيورين على أعراض المسلمين حيث أرسل إلينا خطابًا يُحذِّرُ فيه بشدَّة من الخوض في الأعراض وانتهاك الحرمات دون سبب شرعي ولا حجَّة مقبولة، ونبَّه على فشُوِّه بين النَّاس مع شناعته وسوء عاقبته، لكن ينبغي أن يعلم كذلك أنّـه لا يجوز السُّكوت عن الباطل والمبطلين والبدعة والمبتدعين، والله وليُّ التَّوفيق.

❁ ونتوجّه بالشُّكر الجزيل إلى المفضال أبي أحمد ابن نعمان من ولاية تيسمسيلت على شكره وعرفانه بمجهودات القائمين على مجلّة الإصلاح الغرَّاء، الرَّامية إلى نشر العلم النَّافع والتَّوحيد والسُّنَّة.

أمَّا عن اقتراحه جمعَ الأعلام المذكورين في المجلَّة في مُؤلَّف خاصٍّ حتَّى تسهل الاستفادةُ منه، فسيحال على أسرة التَّحرير للنَّظر فيه.

❁ ولا ننسى الأختَ الكريمةَ حليمة أمَّ مريم من مدينة امجدَّل الَّتي راسلتنا بخطابٍ مُفعَم بالإعجاب بالمجلَّة والشُّكر والثَّناء على القائمين عليها.

أمَّا عن اقتراحاتها وأسئلتها فستحال على المشايخ الكرام.

وننصحها بكتاب «تربية الأولاد» للشَّيخ نجيب جلواح فإنَّه مفيد في بابه.

❁ ونقول للمكرَّم إبراهيم الأخضري: جزاك الله خيرًا، فإنَّ الجزائريِّين أمَّةٌ واحدةٌ، عقيدتهم واحدةٌ، جمعتهم كلمةُ التَّوحيد، وكلُّ من يحاول التَّفريقَ بينهم وإذكاءَ نار الطَّائفيَّة والقوميَّة فيهم عدوٌّ دخيل، وصدق الإمامُ المصلح عبد الحميد بن باديس إذ قال:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب

كما أرسل إلينا خطابًا آخر يحذِّرُ فيه من دعاة القوميَّة والطَّائفيَّة الطَّاعنين في الفتوحات الإسلاميَّة الّتي كانت نورًا ورحمةً وعدلاً للعباد والبلاد.

❁ والشُّكر موصول إلى المحبِّ محمَّد دويدي من ولاية قالمة على وفائه للمجلَّة وشكره الجزيل للقائمين عليها، وممَّا قاله فيهم: «أبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم وأطال أعماركم للدَّعوة السَّلفيَّة تعلون صروحها، وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الأمَّة تضمدون جروحها وتداوون قروحها...».

نسأل الله أن يجعلنا خيرًا ممَّا يظنُّون، وأن يغفر لنا ما لا يعلمون.

❁ وفي الأخير: نشكر جميع إخواننا المتواصلين والمحبِّين: الأستاذ عبد القادر بنوالي، ثلَّة من بلدية الروينة ولاية عين الدفلى، نور الدِّين بن عاشور قليل من ولاية خنشلة، عبد الكريم من وهران، بخاخ مصباح من مدينة العلمة، أسماء صبرينة من فرنسا، وأبي سهيل.

فسعدنا كثيرًا بمراسلاتهم، أمَّا أسئلتهم وطلباتهم فستوجَّه إن شاء الله إلى المعنيِّين.